السنن الإلهية

قوانين ربَّانية تحكم
الأمم والمجتمعات والأفراد

بسم الله الرحمن الرحيم

السنن الإلهية

قوانين ربَّانية تحكم الأمم والمجتمعات والأفراد

بقلم
د. أمير علي الحداد

الكويت
١٤٤٦هـ - ٢٠٢٥م

المقدمة

إن الحمد لله نحمده ونستعين به ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا، وسيئات أعمالنا.. له الحمد سبحانه كما ينبغي لجلال وجهه وعظيم سلطانه.. بديع السماوات والأرض، أتقن كل شيء خلقه.. والصلاة والسلام على المبعوث رحمة للعالمين.. أرسله بالهدى ودين الحق ليظهره على الدين كله.. أدى الأمانة، وبلغ الرسالة.. وبيَّن كل ما يحتاج له الخلق.. للسير على طريق الهداية..

نزَّل عليه كتاباً فُصِّلت آياته.. تبياناً لكل شيء.. لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه تنزيلٌ من حكيم حميد..

وبعد: فإن المتدبر في خلق السماء والأرض، يصل إلى يقين أنه صُنع الله.. وأن كل ما فيه يسير وفق سنن إلهية دقيقة ثابتة لا تتبدل ولا تتغير ولا تتعطل.. دلالة أخرى على عظمة الخالق وعلمه وحكمته وقدرته عز وجل.. هذه السنن الإلهية.. يسعى البشر لفهمها.. حتى يتمكنوا من استكشاف الكون والتنبؤ بمجرياته.. للتعامل معها بما فيه مصلحتهم..

يقول سبحانه: ﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ ٱلشَّمْسَ ضِيَآءً وَٱلْقَمَرَ نُورًا وَقَدَّرَهُۥ مَنَازِلَ لِتَعْلَمُوا۟ عَدَدَ ٱلسِّنِينَ وَٱلْحِسَابَ ۚ مَا خَلَقَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ يُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥﴾﴾ (يونس).

وقال سبحانه مرشداً إلى ثبات هذه السنن الكونية: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ (يس).

وعلى ذات السياق وضع الله سبحانه وتعالى سنناً تحكم حياة البشر وقوانين تنظم سعادتهم ورفاهيَّتهم وعزهم، وتَمكُّنَهم وسعة رزقهم وازدهارهم... وكذلك تبيّن لهم أسباب الذُّلِّ والضعف والهوان.. والدمار والهلاك.

يقول تعالى: ﴿وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي ٱلْأَرْضِ كَمَا ٱسْتَخْلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًاۚ يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْـًٔاۚ وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (النور).

هذا قانون الاستخلاف والتمكين والأمان...

ويقول سبحانه: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ (إبراهيم).

وهذا قانون دوام النعمة وزيادتها..

ويقول عز وجل: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ (إبراهيم).

وهذه سنة الله في إهلاك الظالمين، حيث كانوا ومتى كانوا، ومن كانوا...!

وغيرها كثير في كتاب الله.

إن السنن الإلهية لا يملك الخلق تغييرها أو تعطيلها، ولكن يمكنهم السعي لمعرفتها والاستفادة منها لما فيه خيرهم..

والفائدة الأعظم للأمم والأفراد تحصل إذا هم عرفوا السنن الإلهية التي تحكم عزتهم ورفعتهم وتمكينهم ورزقهم وسعادتهم فأتوا بها، وتلك التي تؤدي إلى ذلهم وضعفهم، وتفرقهم وشقاءهم... فاجتنبوها..

وأوْلى الأمم بمعرفة هذه السنن.. هي أمة الإسلام.. ذلك أن السنن الإلهية جاءت واضحة مفصلة في كتاب الله الذي أُنزل إليهم.. ولم ترد في أي كتاب آخر!!

وحتى يدرك المسلمون أهمية هذه السنن ينبغي أن يعلموا يقيناً أن ما كانوا فيه من عزٍّ وتمكين.. وما آلت إليهم أحوالهم من ذل وهوان.. ليس إلا وفق السنن الإلهية.. التي وضعها الله عز وجل لتنظيم حياة البشر على هذه الأرض..

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية: «والرب تعالى في الحقيقة لا ينقض عادته التي هي سنته التي قال فيها: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ (الفتح).[1]

(١) النبوات، (١/ ٢٣٣).

ويذكر رحمه الله مثالاً لسنن الله في الأمم فيقول: «إن الله يقيم الدولة العادلة، وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة».[١]

إن المتدبر لكتاب الله يجد هذه السنن الإلهية مفصلة في كثير من آياته.. بل أمرَ الله عز وجل عباده أن ينظروا - نظر تدبر - في أحوال الأمم السابقة للاعتبار والاستفادة العملية.. فقال سبحانه:

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ (الأحزاب).

وقال سبحانه: ﴿ لَا يُؤْمِنُونَ بِهِۦ ۖ وَقَدْ خَلَتْ سُنَّةُ ٱلْأَوَّلِينَ ﴿١٣﴾ ﴾ (الحجر).

يقول علماء الاجتماع: «التاريخ يعيد نفسه»... والحق أن يُقال: «هذه سنن الله التي لا تتبدل ولا تتغير.. والله سبحانه هو الذي يعيد التاريخ». إن دراسة السنن الإلهية وتعلمها تعين العبدَ على فهم مجريات الأحداث، وما ستؤول إليه الأحداث وخاصة من بيدهم مقاليد الأمور، ومصير الأمة... وهذا الباب - السنن الإلهية - باب من أبواب العقيدة قصَّر في تعلمه كثير من المسلمين، فكانت محاولات الجماعات الدعوية لإقامة دولة الإسلام خبطَ عشواء.. جَرَّت على أمة الإسلام ويلات أكثر مما كانت عليه!!

(١) الفتاوى، (٢٨/ ١٤٦).

في هذه الورقات التي بين يديك... جمع الفقير إلى ربه أربعين موضوعاً في (السنن الإلهية) التي تنظم حياة الأمم والأفراد.. من كتاب الله وسنة النبي ﷺ، سَرَدَها بأسلوب حواري بسيط لتصل الفكرة لعامة الناس..

ولا شك أن القارئ سيجد بعض الهفوات والأخطاء.. فمن وجد ذلك فليتواصل مع الكاتب بالبريد الإلكتروني.. ومن استفاد من هذه الورقات فلا يبخل على كاتبها بالدعاء له بالثبات على الحق في الحياة والمغفرة والرحمة بعد الممات.

وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين.

وكتبه: د. أمير الحداد - الكويت

شعبان ١٤٤٦هـ - فبراير ٢٠٢٥

البريد الإلكتروني: amir122@yahoo.com

❋❋❋❋❋

السنن الإلهية (١)

صاحبي خريج علوم سياسية، ومتابع للمحللين السياسيين في كثير من القنوات العربية والأجنبية، يقارن، ينتقد، ويبدي آراءه وتوقعاته في القادم من الأحداث.

– هل تعلم ما الذي ينقص المتخصصين في العلوم السياسية؟

– كلا، نوَّرنا بما لديك.

– ينقصهم العلم الشرعي في السنن الإلهية.

استغرب صاحبي.

– وما علاقة السنن الإلهية بالعلوم السياسية؟!

– هذا ما أردت بيانه، ذلك أن كثيراً من المسلمين لا يعرف السنن الإلهية ولا يتعلمها، بل ربما يغفل عن وجودها رغم أن الكون كله، يسير وفق السنن الإلهية، تظهر أممٌ وتختفي أخرى وفق السنن الإلهية، يسعد الفرد ويشقى، ويعز ويذل، وفق السنن الإلهية.

بقي صاحبي منصتا، كأنه يسمع أُحجِيةً غريبة، تابعت حديثي:

– كلنا نقرأ كتاب الله تعالى:

﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ (الأحزاب).

﴿ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾ ﴾ (الإسراء).

﴿ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئِۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ٤٣﴾ (فاطر).

وآيات أخرى تبيّن أن لله عز وجل سُنناً، وهذه السنن - ولك أن تسميها قوانين وقواعد في الأمم والأفراد والكون- ثابتة مستغرقة، لا تتبدل ولا تتحول ولا تتوقف، وهي بلا شك أثبتُ من النظريات البشرية في السياسة والاقتصاد.

كنت وصاحبي في جلسة هادئة، مساء الأربعاء بعد صلاة العشاء أخذنا مجلساً خارجياً في أحد المقاهي المطلة على البحر.

- ولماذا لا يتحدث العلماء عن هذه السنن وينشرونها لعامة الناس حتى يتفقه الناس بها، ويتعلموها، ولاسيما أصحاب الاختصاص؟.

- أما أصحاب الاختصاص فإنهم يكتفون بالنظريات العلمية التي درسوها والأوراق العلمية التي تُنشر، ولا ينظرون في الشريعة الإسلامية في أنها من الممكن أن تمدهم بشيء في تخصصاتهم السياسية أو الاقتصادية، قَصَرُوا الشريعة على العبادة، وأما عامة الناس فينظرون في السنن الإلهية أنها من نافلة العلم، ولا يحتاجون إليها في حياتهم اليومية، مع أنها جزء من عقيدة المسلم.

- كيف هي جزء من عقيدة المسلم؟

- إن السنن الإلهية تبين القواعد التي وضعها الله لكل شيء في

الكون والأمم والأفـراد، تبيّن عظمة الله عز وجـل، واقتضت حكمته سبحانه وضع هذه القوانين، فكلُّ شيء يحدث وفق هذه القوانين، فهي ثابتة منذ أن خلق الله الكون وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها.

إذا عرف العبد هذه القوانين، فإنه يطمئن إلى وعد الله: إن كان مظلوماً، يعلم أن الله سينصره، وإن كان وقع له كيد سيئ، يعلم أن الكيد سيرجع على أهله، إن شكر النعمة يعلم أن الله سيزيده، هكذا في الأفراد، وفي الأمم: العالِم بسنن الله يعرف متى وكيف يأتي نصر الله.. ومتى تعز الأمة.. ومتى يتخلَّف النصر.. وكيف تسقط الأمة ولا يغتر بما يظهر بأنه خلاف سنة الله، وذلك أن وعد الله حق، والله لا يخلف الميعاد، فالعالِم بهذه السنن مع بعض العلوم الدنيوية، في الاقتصاد والسياسة، يستطيع أن يستقرأ المستقبل ويرسم خارطة طريق للأمة حتى تنهض وتستقر وتتمكن في الأرض.

- بصراحة، الكلام جميل، ولكن أشعر أنه نظري، وأقـرب إلى الخيال!

- لا تقل هذا الكلام، لمجرد أنك لم تطلّع على سنن الله ولم تدرس الشريعة، هذه حقائق أثبتُ من النظريات السياسية والاقتصادية؛ فمشكلة كثير من الناس أنهم لا يؤمنون بهذه السنن؛ لأنهم لا يرونها تقع أمام أعينهم؛ وذلك أن سنن الله لا تقاس بأعمار البشر، بل بأيام الله عز وجل:

﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ (الحج).

فمن أراد أن يعرف سنن الله فلينظر على امتداد آلاف السنين؛ لذلك يقول الله تعالى:

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ (آل عمران).

سُنن الله ماضيةٌ في المؤمنين والكافرين والمكذبين والظالمين، لا تتخلف أبداً، والذي يريد معرفة سنن الله في دمار الحضارات، وازدهارها، ينظر على مدى آلاف السنين، لا عشرات ومئات السنين فحسب، وهذا الأمر، أعني (سنن الله) تقع في فترات زمنية طويلة تجعل الغافل لا ينتبه لها، بل ربما يهملها تماماً، إذا لم تكن لديه خلفية في العقيدة.

- استدرك علي صاحبي:

- نحن نقرأ في كتب التاريخ مثل كتب ابن خلدون وغيره، ولدينا قاعدة (التاريخ يعيد نفسه)، ولم يخطر ببالي فكرة (السنن الإلهية).

- مقولة (التاريخ يعيد نفسه) خطأ، والصواب (التاريخ يعيده الله عز وجل)، الأحداث تقع وفق قوانين ثابتة وضعها الله -عز جل- اسمها (السنن الإلهية)، ثابتة لا تتغير، مستغرقة، لا تتخلف، دائمة لا تتوقف، شاملة لا تستثني، هذه هي سنن الله عز وجل، من عرفها كان علمه حقاً ثابتاً، ومن غفل عنها، يتخبط خبط عشواء في تحليله واستقرائه.

❋❋❋❋❋

السنن الإلهية (٢)

في زيارة قصيرة إلى الرياض، عاصمة المملكة، استقبلني صاحبي في المطار، وكعادته لم يترك لي المجال أن أنزل إلا في بيته، وهكذا اعتدنا منذ أكثر من خمس عشرة سنة، إذا زار الكويت فمكانه منزلي وإذا زرت الرياض مكاني منزله، وصلت بين صلاة العصر والمغرب، وكنت قد جمعت صلاتي الظهر والعصر قبل الصعود للطائرة.

- سوف تتفاجأ وتنبهر لما ستراه من تغيّر في مدينتنا.

- إيجاباً أم سلباً؟

- لا يخلو أمر في الدنيا من هذين، ولكن أظن الإيجابيات أكثر من السلبيات، أخبرني عن آخر مشاريعك الكتابية؟

- انتهيت -بفضل الله- من (أعمال القلوب، الطاعات والذنوب)، وبدأت أكتب عن (السنن الإلهية).

- ما شاء الله! اختيارك للعناوين جميل جداً، يلفت الانتباه، ويشوق القارئ لمعرفة المحتوى، لقد اطلعت على (أعمال القلوب)، من خلال موقعك على الشبكة العنكبوتية، واستمتعت بكثير من المواضيع بل واستفدت كثيراً. **وماذا عن (السنن الإلهية)؟**

- سنن الله -سبحانه وتعالى- وقوانينه الثابتة في الكون، والأمم، والأفراد، قوانين العزة والتمكين، قوانين الهلاك والعذاب، قوانين النصر، قوانين الرزق، وهكذا.

كانت الطريق سالكة، بالقرب من المطار، ولكنها أخذت في الازدحام كلما اقتربنا من مركز المدينة، وظهرت مشاريع البناء والطرق والمباني الجديدة.

تابعنا حديثنا بعد التعليق على هذه المشاريع وتفاصيلها.

- ولماذا سميتها (سنن إلهية) وليس (سنن ربانية)؟

- الله -سبحانه وتعالى- وصفها بذلك، يقول تعالى:

﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ (الأحزاب).

ويقول تعالى: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ (الفتح).

ويقول تعالى: ﴿وَإِن كَادُوا۟ لَيَسْتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلْأَرْضِ لِيُخْرِجُوكَ مِنْهَا ۖ وَإِذًا لَّا يَلْبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدْ أَرْسَلْنَا قَبْلَكَ مِن رُّسُلِنَا ۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحْوِيلًا ﴿٧٧﴾﴾ (الإسراء).

ويقول عز وجل: ﴿وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ (فاطر).

قاطعني (أبو محمد).

– إن لم تخني الذاكرة، كلمة «سنة» تكتب في المصحف بتاء مفتوحة وتاء مربوطة، هل من سبب لذلك؟ مع أنها في الإملاء ينبغي أن تكون بتاء مربوطة.

– أحسنت أبا محمد، نعم لقد لفت نظري هذا الأمر منذ فترة، وبحثته في الكتب التي تناولت الرسم العثماني للقرآن، ذكروا أن هناك ثلاث عشرة كلمة وردت بهذا الشكل، وهي:

(رحمة – رحمت) (نعمة – نعمت) (سنة – سنت) (امرأة– امرأت) (ابنة – ابنت) (لعنة – لعنت) (شجرة – شجرت) (جنة – جنت) (معصية – معصيت) (فطرة – فطرت) (قرة – قرت) (بقية –بقيت) (كلمة – كلمت). والسبب –كما قال أهل الاختصاص–: إن التاء المربوطة تأتي إذا كان الأمر عاماً ولا يتعلَّق بمخصوص، وتأتي التاء المفتوحة إذا كانت مرتبطة بشخص أو فئة، أو مكان أو حدث محدد، ودعني أوضح لك بأمثلة: كلمة (رحمة).

يقول تعالى: ﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ﴿٥٣﴾﴾ (الزمر)، شاملة عامة لجميع الذين أسرفوا، بل للبشر جميعا.

ويقول تعالى: ﴿قَالُوٓا۟ أَتَعْجَبِينَ مِنْ أَمْرِ ٱللَّهِ ۖ رَحْمَتُ ٱللَّهِ وَبَرَكَٰتُهُۥ عَلَيْكُمْ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ ۚ إِنَّهُۥ حَمِيدٌ مَّجِيدٌ ﴿٧٣﴾﴾ (هود).

جاءت لإبراهيم وزوجه عندما بشر بإسحاق، ومن وراء إسحاق

يعقوب -عليهم السلام-، فهذه خاصة بهم، ولو رجعنا إلى موضوعنا، (سنة الله)، تأتي بالتاء المربوطة، إذا كانت عامة، لا تحدد فئة، كما في قوله تعالى: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾ ﴾ (الأحزاب).

وتأتي بالتاء المفتوحة إذا كانت في فئة: ﴿ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ (فاطر).

هذه خاصة بعذاب أهل المكر السيئ. ووردت (سنت) بالتاء المفتوحة خمس مرات في كتاب الله.

- أول مرة أعرف هذه المعلومة الدقيقة عن رسم القرآن. - علوم القرآن لا يحيط بها أحد، وإنما يجتهد العلماء في دراستها وفهمها وشرحها، هذا كلام الله عز وجل، المعجزة، الحجة على البشر جميعاً، بكل ما فيه من أخبار، ووعد، ووعيد، وبيان، وهداية، بعد الرسل وآخرهم رسول الله محمد بن عبدالله ﷺ، حجة الله على الخلق، كتابه العزيز:

﴿ لَّا يَأْتِيهِ ٱلْبَٰطِلُ مِنۢ بَيْنِ يَدَيْهِ وَلَا مِنْ خَلْفِهِۦ ۖ تَنزِيلٌ مِّنْ حَكِيمٍ حَمِيدٍ ﴿٤٢﴾ ﴾ (فصلت).

❋❋❋❋❋

السنن الإلهية في القرآن الكريم

صاحبي متخصص في علوم اللغة، أستمتع بحديثه إذا شرح آية من كتاب الله عز وجل، قد تستمع إليه لأكثر من خمسين دقيقة وهو يتناول تفسير (سورة الكوثر)، ثلاث آيات فقط! اجتمعنا في المكتبة: الرواد الدائمون للمسجد بعد صلاة العصر كُنَّا صياماً، بدأ الدكتور (زياد) حديثه.

- القرآن كتاب الله عز وجل، فيه الهدى والبيان، لكل ما يحتاجه العبد، فصّل ما يحتاج إلى تفصيل، وأوجز ما لا حاجة له إلى زيادة بيان، في العقيدة والعبادات والمعاملات والأخلاق، والعلاقات البشرية، كتاب كامل لا نقص فيه ولا عيب ولا زيغ، كما قال تعالى:

﴿ وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ تِبْيَٰنًا لِّكُلِّ شَىْءٍ وَهُدًى وَرَحْمَةً وَبُشْرَىٰ لِلْمُسْلِمِينَ ﴿٨٩﴾ ﴾ (النحل).

أخذ المصحف الذي كان أمامه، وقد وضع فيه قصاصات ليصل إلى الآيات التي يريد الاستشهاد بها.

- لو تتبعنا مادة (السنن) في كتاب الله، لوجدناها ترد في سياقين ﴿**سنة الأولين**﴾ (الأنفال:٣٨ - الحجر:٣- الكهف:٥٥- فاطر:٤٣)، و﴿**سنة الله**﴾ (الإسراء:٧٧- الأحزاب:٦٢- فاطر:٤٣- الفتح:٢٣)، والتعبيران مترادفان؛ لأنهما يشيران إلى ما أنزل الله من العذاب بالأمم السابقة، ممن كذبوا أو استهزؤوا بالأنبياء، ولو تتبعنا بدقة كلمة (سنة)، لوجدنا أن هذا اللفظ ورد في ستة عشر موضعاً، منها أربعة عشر موضعاً بالإفراد، وموضع

بالجمع، وبتفصيل آخر، تسعة مواضع مضافة إلى الله عز وجل وموضع واحد مضاف إلى الرسل وأربعة مواضع مضافة إلى الأولين، وموضع واحد مضاف إلى (الذين من قبل)، وجاء في موضع واحد نكرة مجردا عن الإضافة بصيغة الجمع.

قطع حديثه الجاد مازحاً.

– هل تتابعون الأرقام حتى تتأكدوا أن المجموع ستة عشر أم أن الصيام أتعبكم وتريدون الاستماع دون تركيز؟! أجبته:

– بل كنت أجمع الأرقام: (١٤+٢) و(٩+١+١+٤+١).

– كنت أمزح معكم، لنرجع إلى موضوعنا (سنن الله).

– هذه الكلمة توزعت في عشر سور، خمس منها مكية، وهي: (الحجر والإسراء والكهف وفاطر وغافر)، وخمس مدنية، وهي: (آل عمران، والنساء، والأنفال، والأحزاب، والفتح)، وهي الآيات التي وضعتُ القصاصات عندها في هذا المصحف.

ولو أردنا أن نلخص محور هذه الآيات يمكن أن نقول: إنها أخبار عن نهوض الأمم وسقوطها، وربط الأسباب بالمسببات والمقدمات بالنتائج بطريقة أشبه ما يكون بالمعادلات الرياضية التي تحكم عالم المادة، هذه الآيات تحض المؤمنين على السير في الأرض –سيراً حسيًّاً أو معنوياً، للتفكر في أحوال هذه الأمم، وفيها حَضٌّ للتفكر وإعمال العقل، ليلتفت إلى السنن التي توجه الأحداث.

وغاية هذه الآيات الإيمان بالسنن الإلهية والعمل بمقتضاها، أفراداً ومجتمعات وأمماً، وإليكم بعض الآيات، وأنصح بقراءة تفسيرها:

﴿ قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ إِن يَنتَهُواْ يُغۡفَرۡ لَهُم مَّا قَدۡ سَلَفَ وَإِن يَعُودُواْ فَقَدۡ مَضَتۡ سُنَّتُ ٱلۡأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ ﴾ (الأنفال).

﴿ وَأَقۡسَمُواْ بِٱللَّهِ جَهۡدَ أَيۡمَٰنِهِمۡ لَئِن جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ لَّيَكُونُنَّ أَهۡدَىٰ مِنۡ إِحۡدَى ٱلۡأُمَمِۖ فَلَمَّا جَآءَهُمۡ نَذِيرٞ مَّا زَادَهُمۡ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسۡتِكۡبَارٗا فِي ٱلۡأَرۡضِ وَمَكۡرَ ٱلسَّيِّئِۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلۡمَكۡرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهۡلِهِۦۚ فَهَلۡ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلۡأَوَّلِينَۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗاۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحۡوِيلًا ﴿٤٣﴾ أَوَلَمۡ يَسِيرُواْ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرُواْ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَكَانُوٓاْ أَشَدَّ مِنۡهُمۡ قُوَّةٗۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعۡجِزَهُۥ مِن شَيۡءٖ فِي ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَلَا فِي ٱلۡأَرۡضِۚ إِنَّهُۥ كَانَ عَلِيمٗا قَدِيرٗا ﴿٤٤﴾ ﴾ (فاطر).

﴿ وَإِن كَادُواْ لَيَسۡتَفِزُّونَكَ مِنَ ٱلۡأَرۡضِ لِيُخۡرِجُوكَ مِنۡهَاۖ وَإِذٗا لَّا يَلۡبَثُونَ خِلَٰفَكَ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٧٦﴾ سُنَّةَ مَن قَدۡ أَرۡسَلۡنَا قَبۡلَكَ مِن رُّسُلِنَاۖ وَلَا تَجِدُ لِسُنَّتِنَا تَحۡوِيلٗا ﴿٧٧﴾ ﴾ (الإسراء).

﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنۡ حَرَجٖ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۚ وَكَانَ أَمۡرُ ٱللَّهِ قَدَرٗا مَّقۡدُورًا ﴿٣٨﴾ ٱلَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَٰلَٰتِ ٱللَّهِ وَيَخۡشَوۡنَهُۥ وَلَا يَخۡشَوۡنَ أَحَدًا إِلَّا ٱللَّهَۗ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ حَسِيبٗا ﴿٣٩﴾ ﴾ (الأحزاب).

﴿ لَّئِن لَّمۡ يَنتَهِ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٞ وَٱلۡمُرۡجِفُونَ فِي ٱلۡمَدِينَةِ لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلٗا ﴿٦٠﴾ مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلٗا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ﴿٦٢﴾ ﴾ (الأحزاب).

﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ (الفتح).

﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾﴾ (آل عمران).

ومن الآيات التي ذكرت سنناً إلهية دون استخدام كلمة (سنن):

﴿إِن يَنصُرْكُمُ ٱللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ ۖ وَإِن يَخْذُلْكُمْ فَمَن ذَا ٱلَّذِى يَنصُرُكُم مِّنۢ بَعْدِهِۦ ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٦٠﴾﴾ (آل عمران).

﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ ۖ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِى لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ (إبراهيم).

﴿ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ٱلَّذِينَ إِن مَّكَّنَّٰهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ أَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَمَرُوا۟ بِٱلْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا۟ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَٰقِبَةُ ٱلْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ (الحج).

﴿كَتَبَ ٱللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا۠ وَرُسُلِىٓ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ (المجادلة).

وغيرها كثير في كتاب الله فلنتدبرها.

❋❋❋❋❋

السنن الإلهية

قوانين ثابتة لا تتغير ولا تخطئ

في اجتماعنا المعتاد بعد صلاة الجمعة، سألت صاحبي:

- إلى أين وصلت في بحثك عن (السنن الإلهية)؟

اعتدل في جلسته.

- الموضوع أهم مما كنت أعتقد، وأعمق مما كنت أظن، السنن الإلهية جزء مهم جداً في العقيدة، وفي معرفة ما يتعلق بالله عز وجل، وجزء لم يأخذ حقه عند المسلمين، لا ترى العلماء يلقون المحاضرات العامة في هذا الموضوع، ولا تجد التركيز عليه في خطب الجمعة أو الدورات الإسلامية أو حلقات المساجد، مع أن له ارتباطاً مباشراً بمصير الأفراد والأمم، من عزة وذُلٍّ، ورفعة وتمكين ونصر، ورزق ورغد عيش وأمان، وبقاء وهلاك، وكذلك بالنسبة للأفراد.

إستغربت حماس صاحبي، وتركيزه في كلامه!

- السنن الإلهية تعطي نتائج يقينية أشبه بالمعادلات الرياضية والفيزيائية وربما أدق، فيمكنك معرفة الضرر قبل وقوعه، فتجتنبه، ويمكن معرفة الهزيمة قبل حدوثها، فتتفاداها، ويمكنك معرفة الهلاك قبل تحققه فتمنعه، ذلك أن سنن الله ترتكز على السببية والتعليل والشرط والجزاء.

قاطعته:

- هذه الجملة الأخيرة تحتاج مزيداً من التفصيل:

- السنن الإلهية جعلت لكل شيء سبباً، فلا شيء يحدث عبثاً أو دون أسباب، وموقف البشر من الأسباب والمسببات يكون شركاً، أو عبودية، أو عبثاً وإليك التفصيل.

أما المؤمن، فيبذل الأسباب ولا يتعلق بها، وإنما يتعلق قلبه بالله بعد بذل الأسباب، وهذه هي العبودية الصحيحة.

والمشرك يتعلق بالأسباب دون النظر إلى المسبب، ويظن أن الأسباب تؤدي إلى النتائج، بصرف النظر فهو لا يؤمن بأن الله هو الذي يأتي بالنتائج. والثالث، يترك الأسباب ويضع الحبل على الغارب وينتظر النتائج، وهذا عبث وقدح في العقل والشرع، ويمكن تلخيص هذه القاعدة بقول النبي ﷺ: «**اعقلها وتوكل**»، صحيح الترمذي (اعقلها) بذل الأسباب، و(توكل)، تعلق القلب بالله لا بالأسباب.

أعجبني شرح صاحبي!

- أحسنت يا أبا عبدالله.

نبهتُ صاحبي وضيفنا إلى المكسرات والمرطبات الموجودة أمامهما.

تابع صاحبي حديثه:

- ولو تدبرنا كتاب الله، ويجب علينا أن نتدبره، لوجدنا أن الله -تبارك وتعالى- يذكر في آيات كثيرة:

﴿ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿١٣٧﴾ ﴾ (آل عمران).

﴿قُلْ سِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٦٩﴾ ﴾ (النمل).

وهذا السير سواء كان حقيقياً أو اعتبارياً هدفه النظر في عواقب الأمور، عاقبة المجرمين، عاقبة المكذبين، عاقبة الظالمين، عاقبة المفسدين، أمماً كانوا أم أفراداً، وذلك أن ما أصاب أولئك، سيصيب كل من سار على نهجهم، وارتكب خطأهم، هذه القوانين ثابتة نافذة، لا تحابي أحداً، ولا تتخلف عن أحد.

ويصوغ العلماء ذلك بقولهم: إن الله «لا يفرق بين المتماثلات ولا يساوي بين المختلفات».

﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (القلم).

﴿ أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾ ﴾ (ص).

﴿ أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُو۟لَٰٓئِكُمْ أَمْ لَكُم بَرَآءَةٌ فِى ٱلزُّبُرِ ﴿٤٣﴾ ﴾ (القمر).

﴿ هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾ ﴾ (الرحمن).

﴿ وَأَصْحَٰبُ ٱلْأَيْكَةِ وَقَوْمُ تُبَّعٍ ۚ كُلٌّ كَذَّبَ ٱلرُّسُلَ فَحَقَّ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ (ق).

وذلك بعد أن ذكر قوم نوح وأصحاب الرس وثمود وعاداً وفرعون وإخوان لوط وأصحاب الأيكة وقوم تُبَّع.

أخذ صاحبي رشفة ماء واسترخى قليلاً مسنداً ظهره.

- وهل هذه السنن، أو القوانين، يسير بها الكون، أعني الشمس والقمر، والأجرام السماوية، وغيرها؟

- نعم، وهناك تفصيل في هذا الأمر، سنن الله في الكون قهرية، لا دخل لأحد فيها: ﴿لَا ٱلشَّمْسُ يَنۢبَغِي لَهَآ أَن تُدْرِكَ ٱلْقَمَرَ وَلَا ٱلَّيْلُ سَابِقُ ٱلنَّهَارِ ۚ وَكُلٌّ فِي فَلَكٍ يَسْبَحُونَ ﴿٤٠﴾﴾ (يس).

ولا يمنع نظامها إلا الله عز وجل؛ لإظهار معجزة أو نهاية العالم، فالنار تحرق، هكذا خُلقت، أوقف الله هذه السنة لأجل (إبراهيم) -عليه السلام-، فجعلها برداً وسلاماً، والشمس تشرق كل يوم من المشرق، وستبقى كذلك إلى أن يشاء الله ليوم القيامة، تطلع من المغرب ولكن العبد لا يبني حياته على المعجزات، بل على الأسباب والمسببات، هذه السنن الكونية وضعها الله عز وجل؛ لتستقيم حياة البشر جميعاً، أما السنن والقوانين المتعلقة بالبشر، فإنها مرتبطة بالأسباب وإرادة الإنسان، بمعنى (افعل كذا، يحصل كذا)، وذلك أن البشر لهم إرادة واختيار أما الكون فلا، الشمس والقمر والنجوم مسخرات مأمورات لا إرادة لها ولا اختيار.

وسنن الله في البشر مبْنية على وعده ووعيده وأمره ونهيه -سبحانه وتعالى-، فالعبد المؤمن على يقين بأن الله لا يهلك أمة وأهلها مصلحون. هذه قاعدة وردت في قوله الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ ٱلْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ ﴿١١٧﴾﴾(هود).

والعبد المؤمن على يقين أن التمكين في الأرض يكون بأسباب، والنصر يكون بأسباب، والعزة تكون بأسباب، وكذلك الخذلان يكون لأسباب، والذلة تكون لأسباب، وهذه الأسباب هي اختيار الأفراد والأمم، وسنن الله تجري على الجميع.

- سؤال أخير، هل هذه الأمة أعني أمة محمد ﷺ تميزت عن غيرها بشيء؟

- نعم بشيء واحد لحديث النبي ﷺ: قال رسول الله ﷺ:

«إن الله زوى لي الأرض فرأيت مشارقها ومغاربها، وإن أمتي سيبلغ ملكها ما زوي لي منها، وأعطيت الكنزين الأحمر والأبيض، وإني سألت ربي لأمتي ألا يهلكها بسنةٍ عامةٍ، وألا يسلط عليهم عدواً من سوى أنفسهم فيستبيح بيضتهم، وإن ربي قال يا محمد إني إذا قضيت قضاء فإنه لا يرد، وإني أعطيتك لأمتك ألا أهلكهم بسنةٍ عامةٍ، وألا أسلط عليهم عدوا من سوى أنفسهم يستبيح بيضتهم، ولو اجتمع عليهم من بأقطارها -أو قال من بين أقطارها- حتى يكون بعضهم يهلك بعضاً ويسبي بعضهم بعضاً» (مسلم).

❋❋❋❋❋

لا مبدِّل لكلمات الله

- تحدثنا سابقاً عن الصيغ التي وردت في كتاب الله.. لبيان سنن الله في خلقه.. وذكرنا ﴿**سُنَّة الله**﴾.. ﴿**سُنَّة الأولين**﴾.. ﴿**تأذَّن ربكم**﴾.. ﴿**قد خلت من قبلكم سُنن**﴾.. ﴿**كَتَبَ الله**﴾.. ﴿**وعد الله**﴾.. ﴿**حقٌّ على الله**﴾، ومنها أيضاً.. ﴿**كلمات الله**﴾ في سياق بيان نتيجة أو إثبات حالة.. مثل قوله تعالى:

﴿وَلَقَدْ كُذِّبَتْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِكَ فَصَبَرُوا۟ عَلَىٰ مَا كُذِّبُوا۟ وَأُوذُوا۟ حَتَّىٰٓ أَتَىٰهُمْ نَصْرُنَا ۚ وَلَا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِ ٱللَّهِ ۚ وَلَقَدْ جَآءَكَ مِن نَّبَإِى ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿٣٤﴾﴾ (الأنعام).

كان إمامنا يلقي خاطرة بعد صلاة العشاء.. يفعل ذلك بين فترة وأخرى لبيان معنى آية قرأها في الصلاة.. أو حكم شرعي غير واضح لدى العامة سأله عنها أحدهم.

- هذه الصيغة (ولا مبدل لكلمات الله).. تشبه تلك التي يذكرها الله عن سننه.. ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ (الأحزاب)، ومثل قوله تعالى: ﴿**كَتَبَ اللَّهُ**﴾ (المجادلة: ٢٨)، فهذه قوانين كتبها الله.. وتكلم بها عز وجل.. فلا تبديل لها ولا تحويل..

وفي آية أخرى يقول تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلًا ۚ لَّا مُبَدِّلَ لِكَلِمَٰتِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿١١٥﴾﴾ (الأنعام)..

(كلمات الله).. هي وحيه سبحانه لرسله على العموم... ومنها سنن الله في النصر والتمكين والعزة والنجاة والغلبة وإهلاك الظالمين والانتقام

من المجرمين ونصرة المظلومين... كلها من كلمات الله.. ومن سننه التي لا تتبدل ولا تتأخر.. ومن سنن الله عز وجل.. ابتلاء من قام بدين الله.. كما قال النبي ﷺ: «**أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل**» (صحيح الجامع).

وفي رواية عن سعد بن أبي وقاص... قلت: يا رسول الله: أي الناس أشد بلاء؟ قال: «**الأنبياء، ثم الأمثل فالأمثل.. يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان دينه صلباً اشتد بلاؤه، وإن كان في دينه رقة، ابُتليَ حسب دينه فما يبرح البلاء بالعبد حتى يتركه يمشي على الأرض ما عليه خطيئة**». (صحيح الترمذي).

والحياة كلها ابتلاء للعبد.. ومن ذلك صَبْرُ العبد على أذى الناس..

يقول ابن القيم في (شفاء العليل): «الإنسان مَدَنيٌّ بالطبع... فإن صبر على ألم مخالفتهم ومجانبتهم أعقبه ذلك لذة عاجلة وآجلة. وسنة الله في خلقه، أن يرفعه عليهم ويذلهم له.. بحسب صبره وتقواه وتوكله وإخلاصه».

ومن سنن الله ألا يرتفع شيء في هذه الدنيا إلا وضعه.. في الحديث عن أنس رضي الله عنه قال: كانت ناقة رسول الله ﷺ تسمى (العضباء) وكانت لا تسبق.. فجاء أعرابي على قعود له.. فسبقها.. فاشتد ذلك على المسلمين.. فقال ﷺ: «**إن حقاً على الله أن لا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه**». البخاري.

وكما قلنا سابقاً.. صيغة (حقٌّ على الله).. تُبين سنةً من سنن الله الدائمة في خلقه!! وفي شرح هذا الحديث...

يخبر أنس بن مالك رضي الله عنه أنه كان للنبي ﷺ ناقة اسمها العضباء، من العضب، وهو شق الأذن، وهو لقب لتلك الناقة، لا أنها كانت مشقوقة الأذن، وكانت سريعة العَدْو، فلا يستطيع أحد أن يسبقها، فجاء أعرابي على قعود له - وهو ما بلغ من الإبل من السنِّ ما يمكن أن يجلس عليه، وأقل ذلك أن يكون ابن سنتين إلى أن يدخل السادسة، فيسمَّى جملاً، ولا يقال إلا للذكر - فسبق ناقة النبي ﷺ العضباء، فشَقَّ ذلك على المسلمين، حتى عُرف وظهر على وجوههم كون هذا الأمر ثقيلاً وشاقاً عليهم، أن تُسبق ناقةُ رسول الله ﷺ، فقال لهم ﷺ: حق على الله ألا يرتفع شيء من الدنيا إلا وضعه بعد ارتفاعه، فبيّن لهم ﷺ أن هذه سنة الله في خلقه، مهما ارتفع شيء في الدنيا وضعه الله تعالى.

قاطع (أبو جراح) الإمام سائلاً:

- هذا القانون الإلهي.. (أعني ما ارتفع شيء إلا وضعه الله).. هذا في الأمور الدنيوية.. وليس في قضايا الدين.. مثل العلم الشرعي وحفظ القرآن.. وغيره..

- أحسنت يا (أبا جراح)... نعم.. هذا يجب بيانه.. كما في الحديث (من الدنيا)... وإلا فإن الله يرفع أهل الدين والعلم الشرعي دائماً ولا يضعهم.. ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ (المجادلة).

قَالَ سَماحةُ العلَّامةِ الشيخ ابن عثيمين – رحمه الله –:

ثم ذكر المؤلِّف حديث أنس بن مالك رضي الله عنه في قصة الأعرابيِّ الذي جاء بقَعودٍ له، ناقة ليست كبيرة، أو جمَل ليس بكبير، وكانت ناقة النبي ﷺ العَضْباء، وهي غير القَصْواء التي حج عليها، هذه ناقة أخرى، وكان من هدي الرسول عليه الصلاة والسلام أنه يسمِّي دوابَّه وسلاحه وما أشبه ذلك.

فالعَضْباء هذه كان الصحابة رضي الله عنهم يرَون أنها لا تُسبَق أو لا تكاد تُسبق، فجاء هذا الأعرابيُّ بقعوده فسبَقَ العضباء، فكأنَّ ذلك شقَّ على الصحابة رضي الله عنهم، فقال النبي ﷺ لما عرَف ما في نفوسهم: «**حقٌّ على الله ألا يرتفع شيءٌ من الدنيا إلا وضَعَه**».

فكلُّ ارتفاع يكون في الدنيا فإنه لا بد أن يؤول إلى انخفاض، فإنْ صَحِبَ هذا الارتفاعَ ارتفاعٌ في النفوس وعلوٌّ في النفوس، فإن الوضع إليه أسرع؛ لأن الوضع يكون عقوبة، وأما إذا لم يصحبه شيءٌ، فإنه لا بد أن يرجع ويوضع؛ كما قال الله تبارك وتعالى:

﴿إِنَّمَا مَثَلُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا كَمَآءٍ أَنزَلْنَٰهُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ فَٱخْتَلَطَ بِهِۦ نَبَاتُ ٱلْأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ ٱلنَّاسُ وَٱلْأَنْعَٰمُ﴾ (يونس: ٢٤).

أي: ظهر فيه من كل نوع.

﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَخَذَتِ ٱلْأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَٱزَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَآ أَنَّهُمْ قَٰدِرُونَ عَلَيْهَآ أَتَىٰهَآ أَمْرُنَا لَيْلًا أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَٰهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِٱلْأَمْسِ ۚ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢٤﴾﴾ (يونس)، ذهبت كلُّها.

كل هذه الزينة، وكل هذا النبات الذي اختلَط من كلِّ صنف، كله يزول كأنْ لم يكن، وهكذا الدنيا كلُّها تزول كأن لم تكن، حتى الإنسان نفسه يبدو صغيرًا ضعيفًا، ثم يقوى، فإذا انتهت قوتُه عاد إلى الضعف والهَرَم، ثم إلى الفناء والعدم، فما من شيء ارتفع من الدنيا إلا وضَعَه الله عز وجل.

وفي قوله عليه الصلاة والسلام: «من الدنيا» دليلٌ على أن ما ارتفع من أمور الآخرة فإنه لا يضعه الله:

فقوله تعالى: ﴿يَرْفَعِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنكُمْ وَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْعِلْمَ دَرَجَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١١﴾﴾ (المجادلة).

هؤلاء لا يضعهم الله عز وجل ما داموا على وصف العلم والإيمان، فإنه لا يمكن أن يضَعَهم الله؛ بل يرفع لهم الذِّكرُ، ويرفع درجاتهم في الآخرة، والله الموفق.

قال الشيخ ابن باز رحمه الله:

الشرح الأول: فالدنيا دار نقص، ونهايتها الضعف والنقص، فالفرس والناقة والإنسان قد يكون كلٌّ منهم سابقاً، ثم يأتي من يسبقه، فهي دار النقص، وليست دار الكمال.

الشرح الثاني: وفيه أن الأشياء من الدنيا ما تدوم على ما هي عليه، قد يعتريها ما يعتريها، فناقة النبي العضباء ناقة معروفة، كانت لا تُسبق، ومع هذا جاء أعرابي على قعود فسبقها، فشقَّ ذلك على الصحابة، فبين ﷺ أنه حقٌّ على الله ما ارتفع شيء من الدنيا إلا وضعه الله، فالدنيا محل النقص،

قد تكون ناقة جيدة، ويكون فرساً جيداً، وإنساناً جيداً لا يسبق، ثم يأتي من يسبقه، ليعلم كل أحد ضعفه، وأن هذه الدنيا ليس لها الكمال، بل من طبيعتها النقص، فكون الدابة لا تُسبق، أو الفرس لا يُسبق، أو الإنسان لا يُسبق، قد يأتي في يوم ما من يسبق الفرس، ويسبق الناقة، ويسبق الشخص، فليتواضع ولا يتكبر، وفَّق الله الجميع.

قانون إلهي حتى في العجماوات (ألا يرتفع شيء إلا وضعه الله)

❋❋❋❋❋

يومٌ عند ربك كألف سنة مما تعدون

صاحبي من محبي السفر بالمركبة، لديه (صندوق السفر)، يحتوي على كل ما يحتاجه للطريق، متقاعد غير مرتبط بأي شيء، يتخذ قرار السفر آنيا، مجرد أن يجد من يرافقه، وبالطبع لديه المرافق الدائم (أبو أحمد).

– بعد عمرتنا الأخيرة، ذهبنا إلى مدينة النبي ﷺ، صلينا الظهر في مسجد قباء، ثم العصر والمغرب والعشاء والفجر في المسجد النبوي، بعد الإفطار اقترح عليَّ صاحبي، أن نرى مدينة «العُلا»، لكثرة ما تذكر هذه الأيام، وبالفعل توكلنا على الله، بعد أن أخذنا الأسباب، وعرفنا المسافة والطريق، المسافة قرابة، ثلاثمائة كيلو مترا، قطعنا بساعتين ونصف الساعة، مدينة فيها الكثير من الآثار والتضاريس الجبلية الجميلة، زرنا متحف مرايا ومجمع الفريد الذهبي، وقررنا المبيت في (بايْنان ترِي العلا)، في اليوم التالي، زرنا السوق الشعبي بالعلا القديمة، وجبل الفيل، ومحطة سكة حديد الحجاز، وبعدها ديار ثمود قوم صالح.

– وماذا رأيتم في ديار ثمود قوم صالح؟

كان صاحبي يحدثني باستمتاع؛ لأنها المرة الأولى التي يرى فيها ديار ثمود، ويظن أنه رأى الجبل الذي خرجت منه الناقة.

– قضينا أربع ساعات نتجول في هذه المناطق، ونرى كيف أصبحت بعد أن كانت مركزاً لحضارة عظيمة يوماً ما.

عقبت على شرح صاحبي المسهب.

- يقول الله تعالى: ﴿ فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾ أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَآ أَوْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾ وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (الحج).

في تفسير هذه الآيات: (**كأيِّن**) عدد كبير من القرى الظالمة أهلكها الله، وهذه سنة من سنن الله في خلقه، إهلاك القرى الظالمة، وإبقاء القرى الصالحة والمصلحة.

﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَى بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ﴾ (هود:١١٧)، وهذه السنة الإلهية لا يلتفت إليها الناس؛ لأنها تقع على مدى زمني طويل يمتد لمئات السنين فلا يراها الفرد، ولكن يراها من يتدبر التاريخ الممتد، وقوله تعالى: ﴿ **أَفَلَمْ يَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ** ﴾، أمر بالسير الحسي أو المعنوي، ولكن ينبغي أن يكون سيراً بقلوب تعقل وآذان تسمع، وإلا فإنهم لن يعتبروا بهذا المسير، وذلك أن هذه السنة (إهلاك الأمة الظالمة)، -ولاسيما إذا كان ظلمها الكفر بأنبياء الله- سنة ماضية إلى يوم القيامة، ولذلك ختم الله هذه الآيات بقوله: ﴿**وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ** ﴾، والله عز وجل (حليم) لا ينزل عذابه لأجل عناد الظالمين، كما قال تعالى:

﴿ وَإِذْ قَالُوا۟ ٱللَّهُمَّ إِن كَانَ هَٰذَا هُوَ ٱلْحَقَّ مِنْ عِندِكَ فَأَمْطِرْ عَلَيْنَا حِجَارَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ أَوِ ٱئْتِنَا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣٢﴾ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُمْ وَأَنتَ فِيهِمْ ۚ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ مُعَذِّبَهُمْ وَهُمْ يَسْتَغْفِرُونَ ﴿٣٣﴾ ﴾ (الأنفال).

وبيّن سبحانه أن إهلاكه للأمم إنما يكون بأيام الله، التي هي كألف سنة مما يعدُّ البشر.

– هل هذه سنة دائمة وقانون ثابت لله عز وجل في الأمم الظالمة؟

– نعم، دون شك، هذه سنة إلهية لا تتوقف ولا تتبدل ولا تحابي أحداً، المرء قد يرى هلاك الظالمين (الأفراد)، كهلاك فرعون، وقارون، وأبي جهل، ونمرود، فتكون ميتتهم عبرة للظالمين جميعاً، وآية لجميع الخلق، حتى لا يتطاول العبد على الله عز وجل، فيكون هلاكهم بعد خمسين سنة أو مئة أو أكثر، ولكن الظالم يهلكه الله، والقرية الظالمة يهلكها الله، ولا شك أن أعظم الظلم قتل الأنبياء والشرك بالله بردّ دعوتهم، كما في الحديث عن أبي موسى الأشعري قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الله عز وجل يملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته ثم قرأ:** ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ (هود)» (متفق عليه).

– بعض المفردات تحتاج إلى مزيد بيان، مثلاً ﴿**خاوية على عروشها**﴾، ﴿**بئر معطلة**﴾، ﴿**قصر مشيد**﴾.

﴿**بئر معطلة**﴾، نابعة الماء ولا ينتفع بها؛ لأن أهلها هلكوا، وقيل دفنت لهلاك أهلها.

﴿**قصر مشيد**﴾، بناء مبني بالحجارة والجص، خلا من سكانه.

❋❋❋❋❋

الأسباب والمسببات

– نعم، الله قادر على أن يرزقك مليون دينار، وبين يوم وليلة تصبح ثرياً واسع الثراء، تملك كل ما يخطر على بالك، ولكن أفعال الله عز وجل ليست عشوائية، فهو الحكيم الذي يضع كلَّ شيء في موضعه الصحيح، العليم الذي يفعل كل شيء وفق علمه محيط بكل شيء؛ ولذلك جعل لكل أحداث الحياة أسباباً، خلق قانون الأسباب والمسببات، مع تذكيره عباده ألا ينسوا (الله) عزَّ وجل، وهم يتعاملون مع هذا القانون.

أخي الأصغر (جاسم) يحلم بأمور كثيرة، أصفها أنها مجرد (أمانيّ)، أحلامه تتطلب أموراً كثيرة لا يملكها، ولا يملك الجهد ليبذله من أجل تحصيلها.

– الماديون يؤمنون بالأسباب والمسببات مطلقاً، بمعنى (تفعل كذا يحصل كذا)، وهذه النظرة المادية، يجب أن تكون عند المؤمن، مع إضافة (الاستعانة بالله والتوكل عليه) لتحقيق الأهداف، مثلاً: إذا اجتمعتْ ظروف معينة، يتكون السحاب في السماء، وإذا أضيفت لها ظروف أخرى، نزل المطر، ولكن وراء كل ذلك، إرادة الله عزَّ وجل، كما قال تعالى:

﴿ وَٱللَّهُ ٱلَّذِيٓ أَرۡسَلَ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابٗا فَسُقۡنَٰهُ إِلَىٰ بَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَحۡيَيۡنَا بِهِ ٱلۡأَرۡضَ بَعۡدَ مَوۡتِهَاۚ كَذَٰلِكَ ٱلنُّشُورُ ٩ ﴾ (فاطر).

ويقول تعالى: ﴿ وَهُوَ ٱلَّذِي يُرۡسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشۡرَۢا بَيۡنَ يَدَيۡ رَحۡمَتِهِۦٓۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَقَلَّتۡ سَحَابٗا ثِقَالٗا سُقۡنَٰهُ لِبَلَدٖ مَّيِّتٖ فَأَنزَلۡنَا بِهِ ٱلۡمَآءَ فَأَخۡرَجۡنَا بِهِۦ مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِۚ كَذَٰلِكَ نُخۡرِجُ ٱلۡمَوۡتَىٰ لَعَلَّكُمۡ تَذَكَّرُونَ ٥٧ ﴾ (الأعراف).

كان (جاسم) ينصت إنصات التلميذ الذي يحاول أن يفهم شرح الدروس من معلمه.

– فالإنسان يتعلم هذه الأسباب حتى يتمكن من تنبؤ الأحوال الجوية، وعلْم البشر محدود، مهما تقدموا؛ فالله عز وجل يعلم بسقوط كل قطرة ماء، متى وكيف؟ ولله المثل الأعلى، فعلم الأرصاد الجوية ليس من علم الغيب، وإنما من الأسباب والمسببات، وكلما عرف البشر تفاصيل الأسباب كان تنبؤهم أدق.

– دعنا من الظواهر الكونية، نعلم أنها كلها أسباب ومسببات من عند الله، الليل والنهار، الصيف والشتاء، الشمس والقمر، ماذا عن الأمور التي تخص البشر؟ الرزق مثلاً.

– الأهم من الرزق، (الهداية)، وذلك أن كثيرا من الناس يحتج بآيات من كتاب الله بأن الهداية من الله، ولا دخل للإنسان فيها، وهذا خطأ فادح، وذلك: «**أن من طلب الهداية بصدق وبذل أسبابها الصحيحة، ينال الهداية**»، بتوفيق الله مع الأسباب.

قاطعني:

– ولكن آيات كثيرة، من كتاب الله ورد فيها:

﴿لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾﴾ (البقرة).

﴿لَقَدْ أَنزَلْنَآ ءَايَٰتٍ مُّبَيِّنَٰتٍ ۚ وَٱللَّهُ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿٤٦﴾﴾ (النور).

أخذ صاحبي يبحث في هاتفه، وهذه آيات أخرى:

﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذْهَبْ نَفْسُكَ عَلَيْهِمْ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٨﴾﴾ (فاطر).

﴿كَذَٰلِكَ يُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَمَا يَعْلَمُ جُنُودَ رَبِّكَ إِلَّا هُوَ ۚ﴾ (المدثر: ٣١).

﴿وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا بِلِسَانِ قَوْمِهِۦ لِيُبَيِّنَ لَهُمْ ۖ فَيُضِلُّ ٱللَّهُ مَن يَشَآءُ وَيَهْدِى مَن يَشَآءُ ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٤﴾﴾ (إبراهيم).

استوقفته..

– هذه الآيات وغيرها التي تذكر مشيئة الله، (من يشاء)، تُحمل على أن مشيئة الله (ليست عشوائية)، وَضَعْ عشرة خطوط تحت هذه (ليست عشوائية)، بل بحكمةٍ وعلمٍ ولطفٍ ورحمة، العبد الذي يبذل أسباب الهداية، وهي الإخلاص والصدق واتباع الرسول وتطبيق أوامر الله، يهديه الله، والذي يعرض عن الصلاة والقرآن وأوامر الله، يتركه الله لما اختار، وهذا معنى (يضله الله)، أسباب الهداية، تؤدي للهداية، وأسباب الضلال تؤدي إلى الضلال، وهذه الآيات تشبه الآيات الأخرى التي تذكر مشيئة الله، مثل قوله تعالى:

﴿أَلَمْ تَعْلَمْ أَنَّ ٱللَّهَ لَهُۥ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ يُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ وَيَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤٠﴾﴾ (المائدة).

فهل يعذب الله الصالحين، المؤمنين، التائبين، كلّاً، وهل يغفر للمشركين، كلا: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَغۡفِرُ أَن يُشۡرَكَ بِهِۦ وَيَغۡفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَآءُۚ وَمَن يُشۡرِكۡ بِٱللَّهِ فَقَدِ ٱفۡتَرَىٰٓ إِثۡمًا عَظِيمًا ﴿٤٨﴾﴾ (النساء).

الله خلق الأسباب والمسببات، أَمَرنا أن نأخذ بها دون أن ننسى خالق الأسباب والمسببات، هذه هي العقيدة الصحيحة، أما التعلق المادي التام بالأسباب، فإنه (إلحاد)، وإن كان يؤدي إلى التقدم والرفعة والتمكين في الحياة الدنيا، أما إلغاء الأسباب والمسببات والتقاعس، فإنه يؤدي إلى الهلاك والضلال والضياع في الدنيا والآخرة، كما قال الله تعالى عن المشركين:

﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ﴿١٤٨﴾﴾(الأنعام).

وكذلك: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ﴿٣٥﴾﴾ (النحل).

خلاصة الأمر يا (أبا جراح)، أن الله جعل لهذا الكون وللمجتمعات وللأفراد قانوناً وسنة إلهية هي الأسباب والمسببات، إذا توفرت الأسباب تحققت النتائج، في الظواهر الكونية، البشر يتعلمونها ليتأهبوا لما سيأتي، وفي المجتمعات والأفراد، ينبغي أن يأخذ المرء بالأسباب حتى يعيش كما يرضى الله عز وجل، ويموت على ما يرضي الله، إن كان يريد الخير لنفسه ولمجتمعه.

لا عذاب.. دون تبليغ

الله -سبحانه وتعالى- له الأسماء الحسنى، والصفات العُلا، لا يظلم أحداً مثقال ذرة، بل يثيب المحسن فوق ما يستحق، ويمهل المقصر، ويحلم عن المسيء، سبحانه رحمته سبقت غضبه، وعفوه سبق عقابه، وفي نهاية الأمر، لا يخلّد في نار جهنم إلا من أصر على الكفر ومات على الشرك!

كنت وصاحبي في رحلة علاج أولية، إلى التشيك، لم أزرها من قبل، صاحبي يتردد عليها لآلام في ظهره، وركبته.

أدينا صلاة الجمعة، توجهنا بعدها للغداء في مطعم عراقي، لا يبعد عن المسجد.

- وهؤلاء البشر، الذين لا يعرفون دين الله عز وجل، أعني أهل هذه البلاد وأمثالها، ما مصيرهم يوم القيامة؟

- هناك سنة إلهية، وقاعدة ربانية، لا تتبدل ولا تتعطل أبدا، وهي قوله عز وجل:

﴿ مَّنِ ٱهۡتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهۡتَدِي لِنَفۡسِهِۦۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيۡهَاۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٞ وِزۡرَ أُخۡرَىٰۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبۡعَثَ رَسُولٗا ﴿١٥﴾ ﴾ (الإسراء).

بدأ حوارنا بعد أن أخذ النادل طلبنا، وكان مهتما أن يستمع لنا؛ فقلت له : - أخشى أن يحاسبك رب العمل!

ابتسم: أنا رب العمل!!

تابعنا حوارنا: هؤلاء الناس الذين وُلدوا في هذه البلاد وغيرها، وعاشوا يهوداً أو نصارى أو ملحدين، أو غير ذلك، الله أعلم بهم، هل قامت عليهم الحجة بتوحيد الله أم لا؟ هل بلغتهم رسالة التوحيد أم لا؟ والقاعدة التي ذكرناها: (أنه لا عذاب إلا بعد تبليغ).

ومن ذلك قوله تعالى: ﴿يَٰمَعۡشَرَ ٱلۡجِنِّ وَٱلۡإِنسِ أَلَمۡ يَأۡتِكُمۡ رُسُلٞ مِّنكُمۡ يَقُصُّونَ عَلَيۡكُمۡ ءَايَٰتِي وَيُنذِرُونَكُمۡ لِقَآءَ يَوۡمِكُمۡ هَٰذَاۚ قَالُواْ شَهِدۡنَا عَلَىٰٓ أَنفُسِنَاۖ وَغَرَّتۡهُمُ ٱلۡحَيَوٰةُ ٱلدُّنۡيَا وَشَهِدُواْ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمۡ أَنَّهُمۡ كَانُواْ كَٰفِرِينَ ١٣٠ ذَٰلِكَ أَن لَّمۡ يَكُن رَّبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ بِظُلۡمٖ وَأَهۡلُهَا غَٰفِلُونَ ١٣١﴾ (الأنعام).

وقوله عز وجل: ﴿وَمَا كَانَ رَبُّكَ مُهۡلِكَ ٱلۡقُرَىٰ حَتَّىٰ يَبۡعَثَ فِيٓ أُمِّهَا رَسُولٗا يَتۡلُواْ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتِنَاۚ وَمَا كُنَّا مُهۡلِكِي ٱلۡقُرَىٰٓ إِلَّا وَأَهۡلُهَا ظَٰلِمُونَ ٥٩﴾ (القصص).

وتعلمون أن صيغة الاستثناء بعد النفي، تفيد الحصر، علق (أبو رعد) صاحب المطعم.

- أنا لا علم شرعي لدي، ولكني -بفضل الله عز وجل- لا تفوتني صلاة عن وقتها لا أصيلها في المسجد، إلا قليلاً، ولكن لا تفوتني، والجمعة لا أفوتها على الإطلاق -بفضل الله- ولكن (هذه السنة الإلهية)، متوافقة مع عدل الله ورحمته وفضله، هل لك أن تفصل فيها.

- بيان ذلك في كتب التفسير، ففي التحرير والتنوير لابن عاشور، «والمعنى أن الله عز وجل لا يهلك قوماً في حال غفلتهم (أي عدم

إنذارهم)، بل لا يهلك أحداً إلا بعد الإعذار والإنذار على ألسنة الرسل -عليهم صلوات الله وسلامه- ومن حكمته ورحمته ألا يعذب الأمم بمجرد كفرهم قبل إقامة الحجة عليهم بإرسال الرسل إليهم، والحاصل: أن الله لا يعذب أحداً إلا بظلمه وبعد إقامة الحجة عليه».

- كلام جميل، وهل نقول إن هؤلاء الناس لم تبلغهم الرسالة ولم تقم عليهم الحجة؟

أعني من عاشوا هنا، منذ ولادتهم، وسمعوا عن الإسلام مجرد سماع، ولم يتفقهوا، ولم تبلغهم، تفاصيل الدين.

- الله أعلم بمن أقيمت عليه الحجة ومن لم تقم عليه الحجة، ولا يظلم ربك أحداً مثقال ذرة، وهناك فئة يسمون (أهل الفترة).

قال الألوسي: «الفترة عند جميع المفسرين: انقطاع ما بين الرسولين».

وأهل الفترة: كل من لم تبلغهم الدعوة، ولم تقم عليهم الحجة، وقال ابن تيميَّة: «من لم تقم عليه الحجة في الدنيا بالرسالة كالأطفال والمجانين وأهل الفترة، فهؤلاء فيهم أقوال، أظهرها: ما جاءت به الآثار أنهم يمتحنون يوم القيامة؛ فيبعث إليهم من يأمرهم بطاعته، فإن أطاعوه استحقوا الثواب، وإن عصوه استحقوا العذاب».

ولا شك أن اختبارهم يتناسب والمشاهد العظيمة التي تكون يوم القيامة؛ ففي المسند عن الأسود بن سريع أن نبي الله ﷺ قال: «**أربعة يحتجون يوم القيامة، رجل أصم لا يسمع شيئاً، ورجل أحمق، ورجل هرم، ورجل مات**

في فترة، فأما الأصم فيقول: رب لقد جاء الإسلام ولم أسمع شيئاً، وأما الأحمق فيقول: رب لقد جاء الإسلام والصبيان يحذفونني بالبعر، وأما الهرم فيقول: رب جاء الإسلام وما أعقل شيئا، وأما الذي مات في (الفترة) فيقول رب ما أتاني لك رسول؛ فيأخذ مواثيقهم ليطيعنه؛ فيرسل إليهم أن ادخلوا النار، قال: فوالذي نفس محمد بيده لو دخلوها لكانت عليهم برداً وسلاماً»، قال شعيب الأرناؤوط حديث حسن، وفي زيادة: «**ومن لم يدخلها سحب إليها**» صحيح الجامع.

أحضر أحد الفتيان العاملين الطعام، وكان زيادة عما طلبنا؛ ذلك أن رب العمل أوصاهم بإكرامنا وقد شاركنا مائدتنا.

ويؤكد الله عز وجل هذه السنة الإلهية الثابتة الدائمة النافذة في آيات أخرى كثيرة منها:

﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴿١٦٥﴾ ﴾ (النساء).

وقوله: ﴿ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ بِٱلْحَقِّ بَشِيرًا وَنَذِيرًاۚ وَإِن مِّنْ أُمَّةٍ إِلَّا خَلَا فِيهَا نَذِيرٌ ﴿٢٤﴾ ﴾ (فاطر).

وقوله: ﴿ وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِى كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولًا أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَٱجْتَنِبُوا۟ ٱلطَّٰغُوتَۖ فَمِنْهُم مَّنْ هَدَى ٱللَّهُ وَمِنْهُم مَّنْ حَقَّتْ عَلَيْهِ ٱلضَّلَٰلَةُۚ فَسِيرُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ فَٱنظُرُوا۟ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ ٱلْمُكَذِّبِينَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (النحل).

وأشار لها في (القصص) بقوله:

﴿وَلَوْلَآ أَن تُصِيبَهُم مُّصِيبَةٌۢ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ فَيَقُولُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ وَنَكُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ (القصص).

ومن ذلك أنه تعالى صرّح بأن جميع أهل النار قطع عذرهم في الدنيا بإنذار الرسل، ولم يكتف في ذلك بنصب الأدلة الكونية والفطرية كقوله تعالى:

﴿تَكَادُ تَمَيَّزُ مِنَ ٱلْغَيْظِ ۖ كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾ قَالُوا۟ بَلَىٰ قَدْ جَآءَنَا نَذِيرٌ فَكَذَّبْنَا وَقُلْنَا مَا نَزَّلَ ٱللَّهُ مِن شَىْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلَّا فِى ضَلَٰلٍ كَبِيرٍ ﴿٩﴾﴾ (الملك).

وقوله تعالى: ﴿وَسِيقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ زُمَرًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءُوهَا فُتِحَتْ أَبْوَٰبُهَا وَقَالَ لَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ رُسُلٌ مِّنكُمْ يَتْلُونَ عَلَيْكُمْ ءَايَٰتِ رَبِّكُمْ وَيُنذِرُونَكُمْ لِقَآءَ يَوْمِكُمْ هَٰذَا ۚ قَالُوا۟ بَلَىٰ وَلَٰكِنْ حَقَّتْ كَلِمَةُ ٱلْعَذَابِ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧١﴾﴾ (الزمر).

ومعلوم أن لفظة كلما في قوله: ﴿كُلَّمَآ أُلْقِىَ فِيهَا فَوْجٌ سَأَلَهُمْ خَزَنَتُهَآ أَلَمْ يَأْتِكُمْ نَذِيرٌ ﴿٨﴾﴾.

صيغة عموم أيضاً؛ لأن الموصول يعم كل ما تشمله صلته.

❋❋❋❋❋

عند المعاينة... لا توبة!

- من كمال شريعة الإسلام وجمالها (باب التوبة)، هذا الباب الذي جعله الله لجميع خلقه، رغَّبهم فيه، وحببه إليهم، وأمرهم به، وعندما تقرأ آيات التوبة في كتاب الله، تكاد تجزم أن كل مذنب إلا ويرجع إلى الله ويتوب إليه، مهما كان ذنبه كبيراً أو كثيراً.

صاحبي من محبي (الرقائق)، دوماً مسبحته في يده، وبعد كل صلاة يصاحبني في طريقي إلى المنزل، يتحدث عن الآيات التي يقرؤها الإمام في العشاءين، حتى وإن كانت من قصار السور.

- ما أعظم هذه السورة! ﴿إِذَا زُلْزِلَتِ ٱلْأَرْضُ زِلْزَالَهَا ۝١﴾ الله أكبر، إنه أمر عظيم، ينبغي الإعداد له، ﴿وَأَخْرَجَتِ ٱلْأَرْضُ أَثْقَالَهَا ۝٢ وَقَالَ ٱلْإِنسَٰنُ مَا لَهَا ۝٣﴾ آيات تهز الكيان، وترتعد لها الفرائص، ﴿يَوْمَئِذٍ تُحَدِّثُ أَخْبَارَهَا ۝٤ بِأَنَّ رَبَّكَ أَوْحَىٰ لَهَا ۝٥﴾.

كان صاحبي يتحدث متأثراً منفعلاً، وبعد أن أنهى آيات الزلزلة، عقب عليها:

- كل ما يحتاجه العبد، هو أن يتوب ويؤوب إلى الله، وربنا الغفور الرحيم الرؤوف الودود، يقبل عبده المذنب، بل ويحب عودته، ويمحو سيئاته وكأنه لم يذنب قط!

﴿قُلْ يَٰعِبَادِيَ ٱلَّذِينَ أَسْرَفُوا۟ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا۟ مِن رَّحْمَةِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يَغْفِرُ ٱلذُّنُوبَ جَمِيعًا ۚ إِنَّهُۥ هُوَ ٱلْغَفُورُ ٱلرَّحِيمُ ۝٥٣﴾ (الزمر).

وفي الحديث عن أنس بن مالك – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**قال الله تعالى: يا ابن آدم، إنك ما دعوتني ورجوتني غفرت لك على ما كان منك ولا أبالي، يا ابن آدم، لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك ولا أبالي، يا ابن آدم، لو أتيتني بقراب الأرض خطايا ثم لقيتني لا تشرك بي شيئا لأتيتك بقرابها مغفرة**» (صحيح الترغيب).

توقفنا عند مفترق الطريق؛ حيث منازلنا في ا تجاهين متعاكسين، عقبت على كلامه:

– ولكن ينبغي على العبد أن يتوب، وأن يستغفر، حتى لا يغلق عنه باب التوبة!

– وهل يغلق باب التوبة قبل يوم القيامة؟!

– نعم، من سنة الله أن (التوبة لا تنفع عند المعاينة)! استغرب صاحبي عبارتي.

– ماذا تعني عند المعاينة؟!

– اسمع هذه الآيات: ﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾ (غافر).

وقوله سبحانه: ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتْبَعَهُمْ فِرْعَوْنُ وَجُنُودُهُۥ بَغْيًا وَعَدْوًا ۖ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ (يونس).

وقوله: ﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ (النساء).

في تفسير هذه الآيات ومثيلاتها بيانٌ لهذه السنة الإلهية، دعني أقرأ لك ما تيسر من تفسير هذه الآيات في هاتفي، وهذا الذي جمعته بتصرف من تفاسير المنار والسعدي والتحرير والتنوير.

﴿وَلَيْسَتِ ٱلتَّوْبَةُ لِلَّذِينَ يَعْمَلُونَ ٱلسَّيِّـَٔاتِ حَتَّىٰٓ إِذَا حَضَرَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ إِنِّى تُبْتُ ٱلْـَٰٔنَ وَلَا ٱلَّذِينَ يَمُوتُونَ وَهُمْ كُفَّارٌ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ أَعْتَدْنَا لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٨﴾﴾ (النساء).

وذلك أن التوبة في هذه الحال (توبة اضطرار) لا تنفع صاحبها، إنما تنفع (توبة الاختيار). فيكون المعنى أن من بادر إلى الإقلاع من حين صدور الذنب، وأناب إلى الله وندم على ذنبه، فإن الله يتوب عليه، بخلاف من استمر على ذنوبه وأصر على عيوبه، حتى صارت فيه صفات راسخة، فإنه يعسر عليه إيجاد التوبة التامة.

والغالب أنه لا يوفق للتوبة ولا ييسر لأسبابها، كالذي يعمل السوء على علم تام ويقين وتهاون بنظر الله إليه فإنه سد على نفسه باب الرحمة.

والحكمة في هذا ظاهرة؛ فالإيمان ينفع إذا كان إيماناً بالغيب، وكان اختياراً من العبد فأما إذا وجدت الآيات صار الأمر شهادة، ولم يبق للإيمان فائدة؛ لأنه يشبه الإيمان الضروري، كإيمان الغريق والحريق ونحوهما، ممن إذا رأى الموت، أقلع عما هو فيه كما قال تعالى:

﴿فَلَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَحْدَهُۥ وَكَفَرْنَا بِمَا كُنَّا بِهِۦ مُشْرِكِينَ ﴿٨٤﴾ فَلَمْ يَكُ يَنفَعُهُمْ إِيمَٰنُهُمْ لَمَّا رَأَوْا بَأْسَنَا ۖ سُنَّتَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ فِى عِبَادِهِۦ ۖ وَخَسِرَ هُنَالِكَ ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿٨٥﴾﴾.

ووجه عدم قبول الإيمان عند حلول عذاب الاستئصال؛ لأن عذاب الاستئصال مشارفة للهلاك والخروج من عالم الدنيا، فإيقاع الإيمان عنده لا يحصل المقصد من إيجاب الإيمان؟ وماذا يغني إيمان قوم لم يبق فيهم إلا رمق ضعيف من حياة ؟ فإيمانهم حينئذٍ بمنزلة اعتراف أهل الحشر بذنوبهم وليست ساعة عمل.

قال -تعالى في شأن فرعون-: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَآ أَدْرَكَهُ ٱلْغَرَقُ قَالَ ءَامَنتُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا ٱلَّذِىٓ ءَامَنَتْ بِهِۦ بَنُوٓا۟ إِسْرَٰٓءِيلَ وَأَنَا۠ مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٩٠﴾ ءَآلْـَٰٔنَ وَقَدْ عَصَيْتَ قَبْلُ وَكُنتَ مِنَ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٩١﴾﴾ (يونس) ، أي فلم يبق وقت لاستدراك عصيانه وإفساده.

وقال- تعالى-: ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا جَآءَ أَحَدَهُمُ ٱلْمَوْتُ قَالَ رَبِّ ٱرْجِعُونِ ﴿٩٩﴾ لَعَلِّىٓ أَعْمَلُ صَٰلِحًا فِيمَا تَرَكْتُ ۚ كَلَّآ ۚ إِنَّهَا كَلِمَةٌ هُوَ قَآئِلُهَا ۖ وَمِن وَرَآئِهِم بَرْزَخٌ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٠٠﴾﴾ (المؤمنون)، هذا الإيمان الاضطراري ليس بإيمان حقيقة ولو صرف عنه العذاب والأمر الذي اضطره إلى الإيمان لرجع إلى الكفران.

وقوله: ﴿إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟﴾ بعدما رأوا العذاب، ﴿كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْىِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾، فهم مستثنون من العموم السابق، ولا بد لذلك من حكمة لعالم الغيب والشهادة لم تصل إلينا ولم تدركها أفهامنا.

قال الله تعالى: ﴿وَإِنَّ يُونُسَ لَمِنَ ٱلْمُرْسَلِينَ ﴿١٣٩﴾ إِذْ أَبَقَ إِلَى ٱلْفُلْكِ ٱلْمَشْحُونِ ﴿١٤٠﴾ فَسَاهَمَ فَكَانَ مِنَ ٱلْمُدْحَضِينَ ﴿١٤١﴾ فَٱلْتَقَمَهُ ٱلْحُوتُ وَهُوَ مُلِيمٌ ﴿١٤٢﴾ فَلَوْلَآ أَنَّهُۥ كَانَ مِنَ ٱلْمُسَبِّحِينَ ﴿١٤٣﴾ لَلَبِثَ فِى بَطْنِهِۦٓ إِلَىٰ يَوْمِ يُبْعَثُونَ ﴿١٤٤﴾ فَنَبَذْنَٰهُ بِٱلْعَرَآءِ وَهُوَ سَقِيمٌ ﴿١٤٥﴾ وَأَنۢبَتْنَا عَلَيْهِ شَجَرَةً مِّن يَقْطِينٍ ﴿١٤٦﴾ وَأَرْسَلْنَٰهُ إِلَىٰ مِاْئَةِ أَلْفٍ أَوْ يَزِيدُونَ ﴿١٤٧﴾ فَـَٔامَنُوا۟ فَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿١٤٨﴾﴾ ولعل الحكمة في ذلك أن غيرهم من المهلكين لو رُدوا لعادوا لما نهوا عنه وأما قوم يونس، فإن الله علم أن إيمانهم سيستمر، بل قد استمر فعلاً وثبتوا عليه والله أعلم.

وقال -تعالى في بيان ذلك-:

﴿هَلْ يَنظُرُونَ إِلَّآ أَن تَأْتِيَهُمُ ٱلْمَلَٰٓئِكَةُ أَوْ يَأْتِىَ رَبُّكَ أَوْ يَأْتِىَ بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ ۗ يَوْمَ يَأْتِى بَعْضُ ءَايَٰتِ رَبِّكَ لَا يَنفَعُ نَفْسًا إِيمَٰنُهَا لَمْ تَكُنْ ءَامَنَتْ مِن قَبْلُ أَوْ كَسَبَتْ فِىٓ إِيمَٰنِهَا خَيْرًا ۗ قُلِ ٱنتَظِرُوٓا۟ إِنَّا مُنتَظِرُونَ ﴿١٥٨﴾﴾ (الأنعام).

أي يوم يأتي بعض آيات ربك الموجبة (للإيمان الاضطراري) لا ينفع نفساً لم تكن آمنت من قبل إتيانها إيمانها بعده في ذلك اليوم، ولا نفساً لم تكن كسبت في إيمانها خيراً وعملاً صالحاً ما عساها تكسب من خيرٍ فيه لبطلان التكليف الذي يترتب عليه ثواب الإيمان والعمل الصالح، فإنه -أي التكليف- مبني على ما وهب الله المكلف من الإرادة والاختيار، بالتمكن من الإيمان والكفر وعمل الخير والشر، وإنما الثواب والعقاب مبني على هذا التكليف.

عقَّب صاحبي:

- نعم، هذا واضح من حديث النبي ﷺ: «**إن الله تعالى يقبل توبة العبد ما لم يغرغر**» (صحيح الترمذي). أي: تصل روحه حلقومه، ﴿فَلَوْلَآ إِذَا بَلَغَتِ ٱلْحُلْقُومَ ﴿٨٣﴾﴾ (الواقعة)، وفسر ابن عباس -رضي الله عنهما- ذلك (بالمعاينة)، أي رؤية ملك الموت، وقال غيره: مراده يتقن الموت لا خصوص رؤية ملك الموت، وقالوا أيضا: هي حالة الاحتضار عموماً، وإن طالت، وهل من العقل أن ينتظر العبد حتى يرى الموت ثم يتوب، الحمدلله الذي شرع لنا التوبة، وأمرنا بها ويسرها لنا، فالله سبحانه وتعالى من أسمائه (التواب)، ومعناه أنه يُوفِّق للتوبة، ويقبلها (التوفيق والقَبول)، وجعلها من هدي نبينا ﷺ؛ فقد قال مبيناً لأمته: «**إني لأستغفر الله في اليوم سبعين مرة**» (صحيح الترمذي)، وذلك عندما نزل عليه ﴿وَٱسْتَغْفِرْ لِذَنۢبِكَ وَلِلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ﴾ (محمد: ١٩)، وفي رواية عن ابن عمر قال رسول الله ﷺ: «**يا أيها الناس توبوا إلى الله؛ فإني أتوب في اليوم إليه مائة مرة**» (مسلم).

❋❋❋❋❋

سنة التغيير

- يقول تعالى: ﴿لَهُۥ مُعَقِّبَٰتٌ مِّنۢ بَيۡنِ يَدَيۡهِ وَمِنۡ خَلۡفِهِۦ يَحۡفَظُونَهُۥ مِنۡ أَمۡرِ ٱللَّهِۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا بِقَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡۗ وَإِذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِقَوۡمٖ سُوٓءٗا فَلَا مَرَدَّ لَهُۥۚ وَمَا لَهُم مِّن دُونِهِۦ مِن وَالٖ ﴿١١﴾﴾ (الرعد).

ويقول تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ﴿٥٣﴾﴾ (الأنفال).

هذه سنة أخرى من سنن الله في الأفراد والمجتمعات، (قانون التغيير)، كان محدثُنا أحد طلبة العلم، حديث التخرج من الجامعة الإسلامية في المدينة، حصل على الدكتوراه بأطروحة عنوانها: (سنن الله في كتاب الله)، لم يكن الحضور كثيراً، ربما خمسون أو أقل، وذلك أن المحتوى علمي، والحضور من طلبة الشيخ في المعهد الديني.

تابع الشيخ حديثه.

- التغيير هو الانتقال من حال إلى حال، وهذا يشمل الأفراد والأمم وآية (الرعد) وردت في معرض التحذير والتهديد، وذلك يشمل تغيير العز إلى ذل، والتمكين إلى التشريد، والرخاء إلى شقاء، والخوف إلى أمن، والقلق إلى اطمئنان، إذا أراد العبد أن يغير الله حاله، لابد أن يتغير، والآية فيها تهديد للكفار، ألا يسترسلوا في غيِّهم، ويقولوا: «إذا رأينا العذاب آمنا»؛ فإن عذاب الله إذا جاء (فلا مرد له)، وهذا كقوله عز وجل:

﴿فَلَوْلَا كَانَتْ قَرْيَةٌ ءَامَنَتْ فَنَفَعَهَآ إِيمَٰنُهَآ إِلَّا قَوْمَ يُونُسَ لَمَّآ ءَامَنُوا۟ كَشَفْنَا عَنْهُمْ عَذَابَ ٱلْخِزْيِ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَمَتَّعْنَٰهُمْ إِلَىٰ حِينٍ ﴿٩٨﴾﴾ (يونس).

وهذه الآية حجة على من كان على ضلال، بزعم أن الله لو هداني لاهتديت، كما قال الله عز وجل عن المشركين:

﴿وَبَرَزُوا۟ لِلَّهِ جَمِيعًا فَقَالَ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا مِنْ عَذَابِ ٱللَّهِ مِن شَىْءٍ ۚ قَالُوا۟ لَوْ هَدَىٰنَا ٱللَّهُ لَهَدَيْنَٰكُمْ ۖ سَوَآءٌ عَلَيْنَآ أَجَزِعْنَآ أَمْ صَبَرْنَا مَا لَنَا مِن مَّحِيصٍ ﴿٢١﴾﴾ (إبراهيم).

فالعبد الذي يريد الهداية يبذل أسبابها، وسيهديه الله، ومن كان على ضلال، يجب أن يغير حاله، حتى يغيره الله، فالبداءة من العبد، والتوفيق بعد ذلك من الله، كما في الحديث:

«**ومن تقرب إليَّ شبراً تقرَّبت منه ذراعاً، ومن تقرب إلي ذراعاً تقربت منه باعاً، ومن أتاني يمشي أتيته هرولة..**» (البخاري)، وهكذا الأمم، إن كانت بعيدة عن الله، فإن الله يتركها على ما هي فيه بعد أن يُقِيمَ عليها الحجة، بإرسال الرسل، والآن الحجة قائمة، بكتاب الله وسنة النبي ﷺ؛ فالأمة التي تريد أن يتغير حالها من الذل إلى العزة، يجب أن تتغير إلى ما يريد الله تعالى، والتي تريد الأمن والاستقرار بعد الخوف والتشرذم، يجب أن تتغير حتى يغير الله حالها، وهكذا هذه سنة كونية نافذة: (من أراد تغيير حاله، يجب أن يبدأ بالتغيير في ذاته).

أما آية سورة الأنفال، فقد وردت في معرض بيان حال النعمة وأتت هذه الآية بعد ذكر مصير آل فرعون والذين من قبلهم.

يقول تعالى: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَفَرُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ فَأَخَذَهُمُ ٱللَّهُ بِذُنُوبِهِمْ إِنَّ ٱللَّهَ قَوِىٌّ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٥٢﴾﴾ (الأنفال).

﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ (الآنفال).

ثم ذكر آل فرعون: ﴿كَدَأْبِ ءَالِ فِرْعَوْنَ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَـٰتِ رَبِّهِمْ فَأَهْلَكْنَـٰهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَغْرَقْنَآ ءَالَ فِرْعَوْنَ وَكُلٌّ كَانُوا۟ ظَـٰلِمِينَ ﴿٥٤﴾﴾ (الآنفال).

فهي آية بين آيتين عن آل فرعون والذين كفروا. في التفسير: «وأن قوم فرعون والذين من قبلهم كانوا من جملة الأقوام الذين أنعم الله عليهم، فتسببوا بأنفسهم في زوال النعمة، كما قال تعالى:

﴿وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍۭ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا ۖ فَتِلْكَ مَسَـٰكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنۢ بَعْدِهِمْ إِلَّا قَلِيلًا ۖ وَكُنَّا نَحْنُ ٱلْوَٰرِثِينَ ﴿٥٨﴾﴾ (القصص).

وهذا إنذار لقريش، أن يحل بهم ما حل بغيرهم من الأمم الذين بطروا النعمة» (التحرير والتنوير) وفي تفسير السعدي.

﴿ذَٰلِكَ﴾ العذاب الذي أوقعه الله بالأمم المكذبين، وأزال عنهم ما هم فيه من النعم والنعيم، بسبب ذنوبهم وتغييرهم ما بأنفسهم، فإن الله لم يكن مغيراً نعمة أنعمها على قوم من نعم الدين والدنيا، بل يبقيها ويزيدهم منها، إن ازدادوا له شكرا، ﴿حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ﴾ من الطاعة إلى المعصية فيكفروا نعمة الله ويبدلوها كفراً، فيسلبهم إياها ويغيرها عليهم كما غيروا ما بأنفسهم.

ولله الحكمة في ذلك والعدل والإحسان إلى عباده؛ حيث لم يعاقبهم إلا بظلمهم؛ وحيث جذب قلوب أوليائه إليه، بما يذيق العباد من النكال إذا خالفوا أمره.

﴿وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٣﴾﴾ يسمع جميع ما نطق به الناطقون، سواء من أسر القول ومن جهر به، ويعلم ما تنطوي عليه الضمائر، وتخفيه السرائر، فيجري على عباده من الأقدار ما اقتضاه علمه وجرت به مشيئته.

❋❋❋❋❋

سنة المدافعة

في مجلس خاص جمعني وثلاثة من الأصدقاء القدامى، زملاء الدراسة في المرحلة الجامعية الأولى، طرحت موضوع (السنن الإلهية).

- هل تصنفه ضمن مواضيع العقيدة؟

- نعم، ولست أنا الذي يصنف، وإنما هكذا تكلم عنه العلماء المختصون؛ وذلك أنه يتعلق بالله عز وجل، سنن الله في الكون والأفراد والمجتمعات.

- لا نسمع كثيراً من يتحدث عنه، ولا نرى كتباً تشرحه كما في أبواب العقيدة الأخرى، مثل التوحيد والشرك والأسماء والصفات والنفاق والتوسل والشفاعة، وغيرها.

- أظنك أصبت يا (أبا فهد)، مع أنه باب، من درسه يستطيع أن يستشرف النتائج قبل وقوعها، ويطمئن قلبه ويعلم أن الله عز وجل (بالغ أمره)، ويرى حكمة الله وعدله في البشر، دون محاباة، وذلك أن سنن الله ثابتة.

كان مضيفنا هو أبو عبدالله (أنور)، وأبو عبدالله (علي) رابعنا، كان الحوار هادئا هادفاً مفيداً، كعادتنا في هذه المجموعة.

تدخل أبو فهد (عبدالرحمن):

- أسمع عن سنة (التدافع)، ولم أبحث أو أقرأ عنها، فهل لك أن تبينها، إن كنت بحثتها؟

- نعم، (سنة التدافع) هي من قول الله تعالى:

﴿ فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ ٱللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُۥدُ جَالُوتَ وَءَاتَىٰهُ ٱللَّهُ ٱلْمُلْكَ وَٱلْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُۥ مِمَّا يَشَآءُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ ٱلْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٥١﴾ ﴾ (البقرة).

وتسمى (سنة المدافعة)، أو الصراع بين الحق والباطل، وهي سنة ماضية إلى يوم القيامة، تكون بالحجة والكلام والسلاح، وبكل أنواع المدافعة والصراع، يقول الله تعالى:

﴿ وَمَا نُرْسِلُ ٱلْمُرْسَلِينَ إِلَّا مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ ۚ وَيُجَٰدِلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ ۖ وَٱتَّخَذُوٓا۟ ءَايَٰتِى وَمَآ أُنذِرُوا۟ هُزُوًا ﴿٥٦﴾ ﴾ (الكهف).

وفعل المضارع (يجادل) يدل على الاستمرار والتجدد، ويذكر الله عز وجل نتيجة هذه المجادلة في الأمم السابقة في سورة غافر:

﴿ كَذَّبَتْ قَبْلَهُمْ قَوْمُ نُوحٍ وَٱلْأَحْزَابُ مِنۢ بَعْدِهِمْ ۖ وَهَمَّتْ كُلُّ أُمَّةٍۭ بِرَسُولِهِمْ لِيَأْخُذُوهُ ۖ وَجَٰدَلُوا۟ بِٱلْبَٰطِلِ لِيُدْحِضُوا۟ بِهِ ٱلْحَقَّ فَأَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٥﴾ ﴾ (غافر).

وفي سورة الحج يقول تعالى: ﴿ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (الحج).

- دعوني أقرأ لكم ما ظهر لي في الهاتف بعد البحث وأنت تتناقشون.

أخذ (أبو عبدالله) يقرأ من هاتفه:

- في لسان العرب، الدفع: الإزالة بقوة، وتدافع القوم: دفع بعضهم بعضاً، والمدافعة: المزاحمة، والاندفاع: المضي في الأمر، أما في (سنن الله)، التدافع بين الحق والباطل، لا بد منه لأنهما ضدان، والمقصود التدافع بين أهل الحق وأهل الباطل وذلك أن وجود أحدهما يستلزم إزالة الآخر؛ فلا يتصور أن يعيش أهل الحق وأهل الباطل في سِلْم من دون غلبة أحدهما على الآخر إلا لعلة، كضعف أصحابهما أو جهلهم أو ضعف تأثير علمهم عليهم.

- كلام جميل! وهنا يجب أن نبين أن للباطل قوة، لذلك لا بد للحق من قوة تحميه وتنصره، كما قال تعالى:

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ لِيَصُدُّوا۟ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ فَسَيُنفِقُونَهَا ثُمَّ تَكُونُ عَلَيْهِمْ حَسْرَةً ثُمَّ يُغْلَبُونَ ۗ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ جَهَنَّمَ يُحْشَرُونَ ﴿٣٦﴾ ﴾ (الأنفال).

والحق لا ينتصر لمجرد أنه حق، بل يجب أن تكون له قوة مادية، وأسباب دنيوية تنصره على الباطل، فإذا بذل أهل الحق الأسباب، انتصروا وإلا فلا نصر، وقول الله عز وجل:

﴿ وَقُلْ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَزَهَقَ ٱلْبَٰطِلُ ۚ إِنَّ ٱلْبَٰطِلَ كَانَ زَهُوقًا ﴿٨١﴾ ﴾ (الإسراء).

هذا بعد بذل الأسباب، وليس من فراغ، كما في قوله تعالى:

﴿ بَلْ نَقْذِفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ وَلَكُمُ الْوَيْلُ مِمَّا تَصِفُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ (الأنبياء).

في تفسير الزمخشري: «ومن سنة الله أن يمحو الباطل ويثبت الحق بكلماته أي بوحيه أو بقضائه».

وفي التحرير والتنوير: معنى الآية: أنه لولا وقوع دفع بعض الناس بعضاً بتكوين الله وإيداعه قوة الدفع وبواعثه في الدافع لفسدت الأرض، أي من على الأرض، واختل نظام ما عليها، ذلك أن الله تعالى لما خلق الموجودات التي على الأرض من أجناس وأنواع وأصناف، خلقها قابلة للاضمحلال، وأودع في أفرادها سُنَناً دلت على أن مراد الله بقاؤها إلى أمد أراده، ثم إنه تعالى جعل لكل نوع من الأنواع، أو فرد من الأفراد خصائص فيها منافع لغيره ولنفسه ليحرص كل على إبقاء الآخر، فهذا ناموس عام، وجعل الإنسان بما أودعه من العقل هو المهيمن على بقية الأنواع. وأعظم مظاهر هذا الدفاع هو الحروب؛ فبالحرب الجائرة يطلب المحارب غصب منافع غيره، وبالحرب العادلة ينتصف المحق من المبطل.

والآية مسوقة مساق الامتنان، فلذلك قال تعالى: ﴿**لفسدت الأرض**﴾ لأنا لا نحب فساد الأرض؛ إذ في فسادها بمعنى فساد ما عليها اختلالُ نظامنا وذهاب أسباب سعادتنا، ولذلك عقبه بقوله: ﴿**ولكن الله ذو فضل على العالمين**﴾.

وأما قوله تعالى: ﴿وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾ ﴾ (الحج).

اعتراض بين جملة ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾﴾ (الحج)، وبين قوله: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ ۗ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ ﴿٤١﴾﴾ (الحج)، فلما تضمنت جملة: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ﴾ (الحج:٣٩)، الإذن للمسلمين بدفاع المشركين عنهم أتبع ذلك ببيان الحكمة في هذا الإذن بالدفاع، مع التنويه بهذا الدفاع، والمتولين له بأنه دفاع عن الحق والدين ينتفع به جميع أديان أهل التوحيد من اليهود والنصارى والمسلمين، وليس هو دفاعاً لنفع المسلمين خاصة.

❋❋❋❋❋

تمييز الخبيث من الطيب

– من القوانين الإلهية أنه سبحانه لا يساوي بين المختلفات، ولا يفرق بين المتماثلات.

– هذه عبارة مجملة، صعبة الفهم، هلاّ ذكرتها بكلمات أسهل، وبأمثلة حتى يفهمها عامة الحضور.

كانت هذه مقدمة درس حضرته في إحدى ديوانيات رواد المسجد، يجتمعون كل ثلاثاء بعد صلاة العشاء، ربما يقرؤون كتاباً يشرحه أحدهم، أو يدعون شيخاً أو متخصصاً في مجال الاقتصاد أو الطب أو العلوم السياسية؛ ليلقي لهم الضوء على جانب من تخصصه.

الحضور متقاعدون أغلبهم، وبعض طلبة الجامعة.

– من الممكن أن نعطي أمثلة كثيرة من كتاب الله عز وجل وسنة النبي ﷺ على هذه القاعدة، مثل قول الله تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾ أَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ فَلَهُمْ جَنَّٰتُ ٱلْمَأْوَىٰ نُزُلًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿١٩﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فَسَقُوا۟ فَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۖ كُلَّمَآ أَرَادُوٓا۟ أَن يَخْرُجُوا۟ مِنْهَآ أُعِيدُوا۟ فِيهَا وَقِيلَ لَهُمْ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلنَّارِ ٱلَّذِى كُنتُم بِهِۦ تُكَذِّبُونَ ﴿٢٠﴾﴾ (السجدة).

وقوله تعالى: ﴿أَفَنَجْعَلُ ٱلْمُسْلِمِينَ كَٱلْمُجْرِمِينَ ﴿٣٥﴾ مَا لَكُمْ كَيْفَ تَحْكُمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (القلم).

وقوله عز وجل: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجْعَلَ ٱلْخَبِيثَ بَعْضَهُۥ عَلَىٰ بَعْضٍ فَيَرْكُمَهُۥ جَمِيعًا فَيَجْعَلَهُۥ فِى جَهَنَّمَ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٣٧﴾﴾ (الأنفال).

وقوله سبحانه: ﴿الٓمٓ ۝١ أَحَسِبَ ٱلنَّاسُ أَن يُتۡرَكُوٓاْ أَن يَقُولُوٓاْ ءَامَنَّا وَهُمۡ لَا يُفۡتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ (العنكبوت). وقوله -عز من قائل-: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ۝١١﴾ (العنكبوت).

هذه الآيات وغيرها كثير تبين أن سنة الله في البشر أن يميز الصادق من الكاذب، والمؤمن من المنافق، والصالح من السيئ، ومن آمن بصدق وإخلاص ومن أظهر الإيمان وأخفى الشرك. وإليكم بعض ما ورد في كتب التفسير في بيان هذه السنة الإلهية والقانون الرباني: في التحرير والتنوير..

لم يجعل الله إيمان النّاس حاصلاً بخوارق العادات، ولا بتبديل خَلْق العقول، بل جعله سبحانه باختيار العبد وجعل للإيمان اختبارات ليميز الخبيث من الطيب وهذا هو القانون الذي بينه سبحانه بقوله: ﴿وَلَقَدۡ فَتَنَّا ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۖ فَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ صَدَقُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡكَٰذِبِينَ ۝٣﴾ (العنكبوت).

وقوله سبحانه: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱلۡمُنَٰفِقِينَ ۝١١﴾ (العنكبوت).

فيكون معنى: ﴿وَلَيَعۡلَمَنَّ ٱللَّهُ﴾ ليظهر علمه للناس بظهور المعلوم له، أي يعلم الناس ذلك ويميزونه.

وجعل جهنم مأوى للكفار وحدهم في الآخرة؛ لأجل أن يميز الكفر من الإيمان، والحق والعدل من الجور والطُّغيان، فلن يجتمع في حكمته سبحانه الضدان، ولا يستوي في جزائه النقيضان ﴿قُل لَّا يَسۡتَوِي ٱلۡخَبِيثُ وَٱلطَّيِّبُ

﴿وَلَوۡ أَعۡجَبَكَ كَثۡرَةُ ٱلۡخَبِيثِۚ فَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ يَٰٓأُوْلِي ٱلۡأَلۡبَٰبِ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ١٠٠﴾ (المائدة) الخبيث والطيب المعنويان في حكم العقلاء والفضلاء، كالخبيث والطيب الحسيين في حكم سليمي الحواس..

فالخبيث في الدنيا خبيث في الآخرة لا ينفعه شيء، ولذلك قال: ﴿لِيَمِيزَ ٱللَّهُ ٱلۡخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَيَجۡعَلَ ٱلۡخَبِيثَ بَعۡضَهُۥ عَلَىٰ بَعۡضٖ فَيَرۡكُمَهُۥ جَمِيعٗا فَيَجۡعَلَهُۥ فِي جَهَنَّمَۚ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٣٧﴾ أي ويجعل -سبحانه- الخبيث بعضه منضمًا متراكبًا على بعض بحسب سنته -تعالى- في اجتماع المتشاكلات، وانضمام المتناسبات، وائتلاف المتعارفات، واختلاف المتناكرات، ومن حكمته سبحانه ألا يطلع عباده على الغيب الذي يعلمه، فاقتضت حكمته الباهرة أن يبتلي عباده ويفتنهم بما به يتميز الخبيث من الطيب من أنواع الابتلاء والامتحان فأرسل رسله، وأمر بطاعتهم، والانقياد لهم، والإيمان بهم، ووعدهم على الإيمان والتقوى الأجر العظيم.

فانقسم الناس بحسب اتباعهم للرسل قسمين: مطيعين وعاصين، ومؤمنين ومنافقين ومسلمين وكافرين، ليرتب على ذلك الثواب والعقاب وليظهر عدله وفضله، وحكمته لخلقه.

وقوله سبحانه: ﴿أَفَنَجۡعَلُ ٱلۡمُسۡلِمِينَ كَٱلۡمُجۡرِمِينَ ٣٥ مَا لَكُمۡ كَيۡفَ تَحۡكُمُونَ ٣٦﴾ (القلم).

إنكار جعل الفريقين متشابهين كناية عن إعطاء المسلمين جزاء الخير في الآخرة و حرمان المشركين منه؛ لأن نفي التساوي وارد في معنى التضاد في الخير والشر في القرآن وكلام العرب، قال تعالى: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤۡمِنٗا كَمَن كَانَ فَاسِقٗاۚ لَّا يَسۡتَوُۥنَ ١٨﴾ (السجدة).

وقال: ﴿أَمْ نَجْعَلُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ كَٱلْمُفْسِدِينَ فِى ٱلْأَرْضِ أَمْ نَجْعَلُ ٱلْمُتَّقِينَ كَٱلْفُجَّارِ ﴿٢٨﴾﴾ (ص).

أفنجعل أيها الناس في كرامتي ونعمتي في الآخرة الذين خضعوا لي بالطاعة، وذلوا لي بالعبودية وخشعوا لأمري ونهيي كالمجرمين الذي اكتسبوا المآثم، وركبوا المعاصي، وخالفوا أمري ونهيي؟ كلا، ما الله بفاعل ذلك. فذلك معنى نفي المشابهة كقوله:

﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ أَمْ هَلْ تَسْتَوِى ٱلظُّلُمَٰتُ وَٱلنُّورُ﴾ (الرعد:١٦).

وقوله عز وجل: ﴿أَفَمَن يَعْلَمُ أَنَّمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ ٱلْحَقُّ كَمَنْ هُوَ أَعْمَىٰٓ إِنَّمَا يَتَذَكَّرُ أُوْلُواْ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩﴾﴾ (الرعد).

عن قتادة: قوله: ﴿أَفَمَن كَانَ مُؤْمِنًا كَمَن كَانَ فَاسِقًا ۚ لَّا يَسْتَوُۥنَ ﴿١٨﴾﴾ (السجدة). قال: لا والله ما استووا في الدنيا ولا عند الموت ولا في الآخرة».

❋❋❋❋❋

سنة الابتلاء

– هل لابد من ابتلاء المؤمن؟ ونزول المصائب عليه؟

– نعم، لا مفر من ذلك، وهذه سنة إلهية، وردت في كتاب الله تعالى وفي سنة النبي ﷺ. كما قال تعالى:

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾ ﴾ (البقرة).

وقال تعالى: ﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾ ﴾ (آل عمران).

وقال تعالى: ﴿ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَيَعْلَمَنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ ﴿١١﴾ ﴾ (العنكبوت)، أي يتحقق علم الله، ويظهر بتمييز المؤمنين عن المنافقين. وفي الحديث: عن مصعب بن سعد عن أبيه قال:«**قلت يا رسول الله أي الناس أشد بلاء؟ قال: الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل من الناس، يُبتلى الرجل حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه، وإن كان في دينه رقَّة، خفف عنه، وما يزال البلاء بالعبد حتى يمشي على ظهر الأرض ليس عليه خطيئة**» (السلسلة الصحيحة).

زميلي في العمل، من بلاد الشام، حاصل على الهوية الألمانية، إلتحق بالعمل معنا منذ ثلاث سنوات، يناقشني بين فترة وأخرى في العقيدة.

– لا أفهم هذه النقطة، المنطق يقول: إن أتْباع الرسل يعيشون حياة

طيبة هادئة، مريحة، والكفار ينبغي أن ينالوا الشقاء والتعب، هذا هو المنطق الذي يعيش عليه الغرب عموماً.

لم أستغرب منطقه، لطول عيشه في ألمانيا، وقلة علمه بقضايا العقيدة.

– هذه فكرة بشرية، ينشرها بعض الناس لترغيب البشر بالتزام أوامر الله، سواء في النصرانية أو الإسلام، ولكنها فكرة لا تتفق والقوانين والسنن الإلهية التي وضعها الله لخلقه، والابتلاء لا يعني المصائب فحسب، بل يبدأ البلاء بمخالفة دواعي النفس والطبع، كالاستيقاظ لصلاة الفجر، والالتزام بأداء الصلوات في أوقاتها، وكذلك بالمرض، والخوف، كما قال تعالى: ﴿ وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ ٱلْخَوْفِ وَٱلْجُوعِ وَنَقْصٍ مِّنَ ٱلْأَمْوَٰلِ وَٱلْأَنفُسِ وَٱلثَّمَرَٰتِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٥٥﴾ ٱلَّذِينَ إِذَآ أَصَٰبَتْهُم مُّصِيبَةٌ قَالُوٓاْ إِنَّا لِلَّهِ وَإِنَّآ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿١٥٦﴾ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَيْهِمْ صَلَوَٰتٌ مِّن رَّبِّهِمْ وَرَحْمَةٌ ۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُهْتَدُونَ ﴿١٥٧﴾ ﴾ (البقرة)، والعقيدة أن هذه الدنيا دار ابتلاء.

قاطعني:

– نعم دار ابتلاء، بمعنى دار اختبار وامتحان، ولكن ليس (دار مصائب).

ابتسمت لمقولته:

– الاختبار يكون بما شاء الله بالخير والشر وما يحب العبد وما يكره: ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلْمَوْتَ وَٱلْحَيَوٰةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلًا ۚ وَهُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْغَفُورُ ﴿٢﴾ ﴾ (الملك).

ويقول تعالى: ﴿ كُلُّ نَفْسٍ ذَآئِقَةُ ٱلْمَوْتِ ۗ وَنَبْلُوكُم بِٱلشَّرِّ وَٱلْخَيْرِ فِتْنَةً ۖ وَإِلَيْنَا تُرْجَعُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ (الأنبياء).

بل مما يبتلي الله به عباده ما رزقهم من قدرات ذهنية أو بدنية أو مادية، ليتبين للناس مدى قيامهم بالواجبات فيما رزقهم الله عز وجل:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٦٥﴾﴾ (الأنعام).

والابتلاء يكون للأفراد وللأمة، فالقانون الثابت أنه (لابد من الابتلاء)!

يقول الله تعالى:

﴿ ۞ لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٨٦﴾﴾ (آل عمران).

ويذكر الله لنا أمثلة كثيرة في كتابه، وفي سنة النبي ﷺ عن أنواع البلاء كما في قصة طالوت وجالوت:

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِٱلْجُنُودِ قَالَ إِنَّ ٱللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّى وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُۥ مِنِّىٓ إِلَّا مَنِ ٱغْتَرَفَ غُرْفَةًۢ بِيَدِهِۦ ۚ فَشَرِبُوا۟ مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۚ فَلَمَّا جَاوَزَهُۥ هُوَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ قَالُوا۟ لَا طَاقَةَ لَنَا ٱلْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِۦ ۚ قَالَ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا۟ ٱللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ (البقرة).

بقي صاحبي منصتاً، ثم علق:

– دعني استوضح، هل ابتلاء المؤمنين يكون بالشدة أم بالرخاء؟!

– الابتلاء يكون بكليهما، وربما يكون اختبار الرخاء أشد فتنة. كما أخبر النبي ﷺ، وقد قدم أبو عبيدة بن الجراح بمال من البحرين؛ فقال ﷺ: «**أبشروا وأمّلوا ما يسركم! فوالله ما الفقر أخشى عليكم، ولكن أخشى أن تبسط الدنيا عليكم كما بسطت على من كان قبلكم فتنافسوها كما تنافسوها فتهلككم كما أهلكتهم**» (متفق عليه).

– ولكن الحديث الأول، حديث: «**أشد الناس بلاء الأنبياء**»، يوحي بأن البلاء والمصائب والشدة تكون لأهل الدين.

– نعم، هو كذلك، كما في حديث عبدالله بن مغفّل – رضي الله عنه – قال: قال رجل للنبي ﷺ: يا رسول الله والله إني لأحبك، فقال ﷺ: انظر ماذا تقول؟ قال: والله إني لأحبك ثلاث مرات فقال ﷺ: «**إن البلايا أسرع إلى من يحبني من السيل إلى منتهاه**» (السلسلة الصحيحة).

إن المصائب تزيد إيمان العبد وتعلقه بالله وترفع منزلته عند الله وتطهره من الذنوب والخطايا، بافتراض أنه يصبر على هذه المصائب، وهكذا كانت وصية النبي ﷺ لأصحابه في بداية الدعوة عندما اشتكوا له شدة ما يلاقون من كفار قريش، قالوا: «ألا تستنصر لنا؟»، ألا تدعو الله لنا؟ فجلس محمراً وجهه، فقال: **قد كان من قبلكم يؤخذ الرجل فيحفر له في الأرض ثم يؤتى بالمنشار فيجعل على رأسه فيجعل فرقتين ما يصرفه ذلك عن دينه ويمشط بأمشاط الحديد، ما دون عظمه من لحم وعصب لا يصرفه ذلك عن دينه**» (متفق عليه).

وإليك ما جاء في تفسير بعض هذه الآيات من تفسير المنار:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ (آل عمران).

كأنه يقول: قد خلت من قبلكم أمم أوتوا الكتاب ودعوا إلى الحق فآذاهم الناس في ذلك فصبروا وثبتوا، ألا تصبرون مثلهم على المكاره، وتثبتون ثباتهم على الشدائد؟ أم حسبتم أن تدخلوا الجنة وتنالوا رضوان الله تعالى من غير أن تفتنوا في سبيل الحق فتصبروا على ألم الفتنة وتؤذوا في الله فتصبروا على الإيذاء كما هي سنة الله تعالى في أنصار الحق وأهل الهداية في كل زمان؟

وقوله عز وجل: ﴿إِن يَمْسَسْكُمْ قَرْحٌ فَقَدْ مَسَّ ٱلْقَوْمَ قَرْحٌ مِّثْلُهُۥ ۚ وَتِلْكَ ٱلْأَيَّامُ نُدَاوِلُهَا بَيْنَ ٱلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَيَتَّخِذَ مِنكُمْ شُهَدَآءَ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٤٠﴾﴾ (آل عمران).

الكلام متصل بما قبله، والخطاب فيه لمن شهد وقعة (أحد) من المؤمنين فإنه تعالى أرشدهم في الآيات السابقة إلى أنه لا ينبغي لهم أن يضعفوا أو يحزنوا، وبيّن لهم حكمة ما أصابهم وأنه منطبق على سنته في مداولة الأيام بين الناس وفي تمحيص أهل الحق بالشدائد، وفي ذلك من الهداية والإرشاد والتسلية ما يربي المؤمن على الصفات التي تنال بها الغلبة والسيادة بالحق، ثم بيّن لهم هذا أن سعادة الآخرة لا تنال أيضا إلا بالجهاد والصبر فهي كسعادة الدنيا بإقامة الحق والسيادة في الأرض فسنة الله فيهما واحدة فقال:

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلِكُم ۖ مَّسَّتْهُمُ ٱلْبَأْسَآءُ وَٱلضَّرَّآءُ وَزُلْزِلُوا۟ حَتَّىٰ يَقُولَ ٱلرَّسُولُ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ مَتَىٰ نَصْرُ ٱللَّهِ ۗ أَلَآ إِنَّ نَصْرَ ٱللَّهِ قَرِيبٌ ﴿٢١٤﴾﴾ (البقرة).

ما أصابكم.. فبما كسبت أيديكم

مع اقتراب موسم الأمطار في الكويت.. الجميع يترقب نزوله.. فإذا نزل.. تناقل الناس.. مكان نزوله.. وكميته.. ووقته.. وإن استمر فرح الناس.. وابتهجوا.. بل نفسياتهم تتغير.. مع أن وسائل الحياة الحديثة.. منحتهم كل ما يحتاجون دون انتظار مطر السماء!!!

- إنها رحمة من رب العالمين.. وهي سنة إلهية فطر الناس عليها..

﴿ ٱللَّهُ ٱلَّذِى يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ فَتُثِيرُ سَحَابًا فَيَبْسُطُهُۥ فِى ٱلسَّمَآءِ كَيْفَ يَشَآءُ وَيَجْعَلُهُۥ كِسَفًا فَتَرَى ٱلْوَدْقَ يَخْرُجُ مِنْ خِلَٰلِهِۦ ۖ فَإِذَآ أَصَابَ بِهِۦ مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦٓ إِذَا هُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿٤٨﴾ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلِ أَن يُنَزَّلَ عَلَيْهِم مِّن قَبْلِهِۦ لَمُبْلِسِينَ ﴿٤٩﴾ فَٱنظُرْ إِلَىٰٓ ءَاثَٰرِ رَحْمَتِ ٱللَّهِ كَيْفَ يُحْىِ ٱلْأَرْضَ بَعْدَ مَوْتِهَآ ۚ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمُحْىِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ وَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٥٠﴾ ﴾ (الروم).

كنت وصاحبي.. صباح السبت.. نتجول في المركبة.. متجهين جنوباً لنرى آثار سقوط الأمطار ليلاً... كان الجو غائماً.. مع رذاذ متقطع..

- نعم، إنها رحمة من رب العالمين.. قد يحبسها الله نتيجة ذنوب العباد.. كما في الحديث.. عن عبد الله بن عمر رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ:

«يا معشر المهاجرين! خصال خمس إذا ابتليتم بهن.. وأعوذ بالله أن تدركوهن: لم تظهر الفاحشة في قوم قط حتى يعلنوا بها إلا فشا فيهم الطاعون والأوجاع التي لم تكن مضت في أسلافهم الذين مضوا.. ولم

ينقصوا المكيال والميزان إلا أُخذوا بالسنين وشدة المؤونة وجور السلطان عليهم.. ولم يمنعوا زكاة أموالهم إلا منعوا القطر من السماء، ولولا البهائم لم يمطروا، ولم ينقضوا عهد الله وعهد رسوله إلا سلّط الله عليهم عدوهم من غيرهم، فأخذوا بعض ما كان في أيديهم وما لم تحكم أئمتهم بكتاب الله عز وجل ويتخيروا فيما أنزل الله إلا جعل الله بأسهم بينهم» (صحيح الجامع).

فهي سنة إلهية.. أن الذنوب تجلب المصائب!! وهذه من أكبرها التي ذكرها النبي ﷺ، في هذا الحديث.. ومنها منع المطر إذا منعت الزكاة!!

عقَّب صاحبي..

- أليس المؤمن معرّض للمصائب ابتلاء وتكفيراً للذنوب؟! كما في الحديث عن أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «**ما يزال البلاء بالمؤمن والمؤمنة في نفسه وولده وماله حتى يلقى الله وما عليه خطيئة**» (صحيح الترمذي).

- نعم هو كذلك.. فالأصل أنها تكفير للذنوب!!! كما قال تعالى:

﴿يَوْمَ تَجِدُ كُلُّ نَفْسٍ مَّا عَمِلَتْ مِنْ خَيْرٍ مُّحْضَرًا وَمَا عَمِلَتْ مِن سُوٓءٍ تَوَدُّ لَوْ أَنَّ بَيْنَهَا وَبَيْنَهُۥٓ أَمَدًۢا بَعِيدًا ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ ٱللَّهُ نَفْسَهُۥ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٣٠﴾﴾ (آل عمران).

في التفسير: «فجزاء الآخرة في الخير والشر هو المطرد الموعود.. والجزاء في الدنيا قد يحصل وقد لا يحصل»..

وفي الحديث.. عن جابر مرفوعاً: «**ما من مؤمن ولا مؤمنة ولا مسلم ولا مسلمة يمرض مرضاً إلا قص الله عنه من خطاياه**» (صحيح الأدب المفرد).

وفي رواية لمسلم: «**لا يصيب المؤمن شوكة فما فوقها إلا نقص الله بها من خطيئته**».

وفيما ينسب إلى الفضيل بن عياض أنه قال: «إني لأصيب الذنب فأعرف ذلك في خلق امرأتي وخادمي وحماري»!!

قاطعني:

- أليس في الحديث: «إن الرجل ليحرم الرزق بالذنب يصيبه»؟

دعني أبحث عن صحة هذا الحديث..

- ورد في سنن ابن ماجه وضعّفه الألباني رحمه الله تعالى..

خرجنا من الشارع المعبد.. إلى طريق ترابية.. تجمعت المياه في برك متفرقة على جانبيه.. (نسميها خباري)..

- لنرجع إلى تفسير الآيات..

- نعم..

- ترجلنا من المركبة نمشي على الأرض الرطبة.. وقد انتشرت رائحة التراب المبلل.. في أجواء نقية جميلة..

- اسمع ما وجدت لك..

يخبر تعالى، أنه ما أصاب العباد من مصيبة في أبدانهم وأموالهم

وأولادهم، وفيما يحبون ويكون عزيزاً عليهم، إلا بسبب ما قدمته أيديهم من السيئات، وأن ما يعفو الله عنه أكثر، فإن الله لا يظلم العباد، ولكن أنفسهم يظلمون: ﴿وَلَوْ يُؤَاخِذُ ٱللَّهُ ٱلنَّاسَ بِمَا كَسَبُواْ مَا تَرَكَ عَلَىٰ ظَهْرِهَا مِن دَآبَّةٍ﴾ (فاطر: ٤٥) وليس إهمالاً منه تعالى تأخير العقوبات ولا عجزاً.

فإضافة السيئة إلى العبد من إضافة الشيء إلى سببه، لا من إضافته إلى مقدّره، أما إضافة الحسنة والسيئة إلى الله تعالى فمن باب إضافة الشيء إلى مقدره، والذنب إذا كان فيه تعد على العباد فإن الله قد يجمع لفاعله بين العقوبتين: عقوبة الدنيا، وعقوبة الآخرة، عقوبة الدنيا ليشفي قلب المظلوم المعتدى عليه، أما إذا كان في حق الله فإن الله تعالى لا يجمع عليه بين عقوبتين، لقوله تعالى:

﴿وَمَآ أَصَٰبَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ وَيَعْفُواْ عَن كَثِيرٍ ﴿٣٠﴾﴾ (الشورى).

وفساد الأرض يكون بالمعاصي، وترك الواجبات، لقوله تعالى: ﴿ظَهَرَ ٱلْفَسَادُ فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي ٱلنَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ ﴿٤١﴾﴾ (الروم).

و(الفساد: سوء الحال، وهو ضد الصلاح، ودل قوله: ﴿فِي ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ﴾، على أنه سوء الأحوال فيما ينتفع به الناس من خيرات الأرض برها وبحرها.

ولهذا إذا قحط المطر، وأجدبت الأرض، رجع الناس إلى ربهم، وأقاموا صلاة الاستسقاء وتضرعوا إليه سبحانه وتعالى، وتابوا إليه، ليغيثهم الله عز وجل، وقد قال نوح عليه السلام لقومه:

﴿فَقُلْتُ ٱسْتَغْفِرُوا۟ رَبَّكُمْ إِنَّهُۥ كَانَ غَفَّارًا ﴿١٠﴾ يُرْسِلِ ٱلسَّمَآءَ عَلَيْكُم مِّدْرَارًا ﴿١١﴾ وَيُمْدِدْكُم بِأَمْوَٰلٍ وَبَنِينَ وَيَجْعَل لَّكُمْ جَنَّٰتٍ وَيَجْعَل لَّكُمْ أَنْهَٰرًا ﴿١٢﴾﴾ (نوح).

وقال تعالى: ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ ٱلْقُرَىٰٓ ءَامَنُوا۟ وَٱتَّقَوْا۟ لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَٰتٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِن كَذَّبُوا۟ فَأَخَذْنَٰهُم بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٩٦﴾﴾ (الأعراف).

وعن البراء بن عازب قال: قال رسول الله ﷺ: «**ما اختلج عرق ولا عين إلا بذنب، وما يدفع الله عنه أكثر**» (صحيح الجامع).

والعباس بن عبد المطلب رضي الله عنه لما استسقى به عمر قال: «اللهم إنه لم ينزل بلاء إلا بذنب، ولم يكشف إلا بتوبة، وقد توجه القوم بي إليك لمكاني من نبيك وهذه أيدينا إليك بالذنوب، ونواصينا إليك بالتوبة فاسقنا الغيث»، قال: «فأرخت السماء مثل الجبال حتى أخصبت الأرض وعاش الناس».

❋❋❋❋❋

سنة النصر

بعد صلاة التراويح ليلة التاسع عشر من رمضان.. صاحبت إمامنا مغادرين المسجد.. استوقفنا شاب - أظنه لم يتجاوز الثلاثين.. حسن الهيئة.. يميل لون شعره إلى الأشقر.. بعد السلام.. ومقدمة حسنة.. مدح قراءة الإمام.. واستأذن أن يسأل..

- لماذا لم تكثر من الدعاء بنصر إخواننا في غزة؟! وأن ينصرنا على اليهود الصهاينة ومن حالفهم من النصارى.. والكفار؟..

أجاب إمامنا...

- لأننا لن ننتصر عليهم.. ولن ينصرنا الله عليهم..

كانت الإجابة صادمة للشاب... لم يخفِ.. استنكاره..

- كيف ذلك يا شيخ... هذه أول مرة أسمع إمام مسجد يقول هذا الكلام... أليس في هذا تخذيل واستسلام.

قاطعه صاحبي:

- دعني أبين لك... ابتداء هناك قوانين إلهية ثابتة ودائمة لا تتغير ولا تتبدل.. وضعها الله لهذا الكون... ومن هذه القوانين قانون النصر.. وقانون التغيير... أما قانون النصر... فإن الله تكفل بنصر رسله وأتباعهم:

﴿إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ ٱلْأَشْهَٰدُ ﴿٥١﴾﴾ (غافر).

والنصر لا يأتي إلا من عند الله:

﴿وَمَا ٱلنَّصۡرُ إِلَّا مِنۡ عِندِ ٱللَّهِ ٱلۡعَزِيزِ ٱلۡحَكِيمِ ١٢٦﴾ (آل عمران).

وجعل الله عز وجل.. شروطاً لهذا النصر.. أخذ الأسباب المادية كافة.. والإعداد الجيد:

﴿وَأَعِدُّواْ لَهُم مَّا ٱسۡتَطَعۡتُم مِّن قُوَّةٖ وَمِن رِّبَاطِ ٱلۡخَيۡلِ تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ (الأنفال: ٦٠)..

ومنها اجتماع الكلمة وعدم الافتراق.. ﴿وَٱعۡتَصِمُواْ بِحَبۡلِ ٱللَّهِ جَمِيعٗا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ (آل عمران: ١٠٣).

ومنها.. الإخلاص والصدق مع الله وتنقية الصفوف (لتكون كلمة الله هي العليا).. وذلك برفع راية (لا إله إلا الله).. ومنها تكافؤ موازين القوى حال المواجهة... كما فعل خالد بن الوليد رضي الله عنه في معركة مؤتة حين انسحب بجيش المسلمين وجنبهم إبادة شاملة، وأثنى عليه النبي ﷺ.. هذه بعض شروط (قانون النصر) من عند الله.. وأنا وأنت وكل المنصفين على يقين أن هذه الشروط لم تتوفر لمن بدأ المواجهة مع الصهاينة في غزة!!! فكيف لهم النصر...

قاطعه الشاب.. وكان متحمساً.. مع شيء من الغضب والإنكار...

- أنا لست من فلسطين... فقط للبيان.. ولكن ها نحن في وسط معركة... دعنا من التفاصيل.. الآن فئة مؤمنة.. تقاتل فئة كافرة...

لماذا لا تدعو لها بالنصر...؟!

- أولاً.. لا بد من الهدوء والرؤية.. ولا يكفي أن نقول إن الأمر (فئة مؤمنة تقاتل فئة كافرة)... هذا اختصار مخل للأمر... ولا يجوز الاستشهاد هنا بقول الله تعالى:

﴿قَدْ كَانَ لَكُمْ ءَايَةٌ فِي فِئَتَيْنِ ٱلْتَقَتَا ۖ فِئَةٌ تُقَٰتِلُ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَأُخْرَىٰ كَافِرَةٌ يَرَوْنَهُم مِّثْلَيْهِمْ رَأْىَ ٱلْعَيْنِ ۚ وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَعِبْرَةً لِّأُو۟لِى ٱلْأَبْصَٰرِ ﴿١٣﴾﴾ (آل عمران).

ولا بقول الله تعالى: ﴿كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةًۢ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٢٤٩﴾﴾ (البقرة).

لو تدبرت هاتين الآيتين.. فإن الأولى (ختامها).. ﴿وَٱللَّهُ يُؤَيِّدُ بِنَصْرِهِۦ مَن يَشَآءُ ۗ﴾.. ومشيئة الله.. وفق قوانين الله.. وليست عشوائية، ولا استثناء لأحد... ولا حتى لأحب الخلق إلى الله (محمد بن عبد الله) ﷺ كما تعلم.. ما حدث في معركة أحد!! إذا تخلف شرط من شروط النصر.. يتخلف النصر.. قاعدة ثابتة نافذة دائمة!!!

والآية الثانية.. كانت للفئة التي مع طالوت ونفذوا تعليمات الله بحذافيرها.. حتى في الامتناع من الشرب من النهر!!! فكانت الشروط متوافرة... وحصل النصر ﴿**وقتل داود جالوت**﴾.

النية لا تكفي.. والحماس لا يغني.. أنا أجزم بأن الدعاء بالنصر مع العلم بعدم توافر الأسباب.. هو من التعدي في الدعاء!!!

استغرب الشاب.. إصرار الشيخ على بيان الأمر.. بقيت أنا مستمعاً أراقب ردات الأفعال..

– أعني أنه لا يجوز للعبد أن يدعو الله (اللهم ارزقني).. وهو لا يسعى في رزقه.. لأن من السنة الإلهية (إن الرزق لا يأتي دون سعي).. هذا قانون إلهي.. لا يتغير ولا يتبدل ولا يتأخر.. وهكذا بالنسبة للنصر.. لا يجوز أن يدعو العبد (يا رب انصرني).. وهو لم يأخذ بأسباب النصر!!! ومع مرور الأيام بدأت الأمور تتضح بأن ما وقع في غزة أدى إلى دمارها.. وتشريد أهلها.. وتجويعهم وتهجيرهم وخراب بيوتهم.. وهدم مستشفياتهم.. ومن بدأ هذا الأمر يستشير حلفاءهم لإيجاد مخرج لإيقاف هذا الدمار وحفظ ماء الوجه... وكما قيل: (الحكيم يرى المصيبة قبل وقوعها وغيره لا يراها إلا بعد خرابها)...

كان إمامنا متحمساً.. مع شيء من الغضب... والألـم.. أما الشاب ازداد اعتراضاً.. وتجهماً.. ألقى السلام وغادر.. يتمتم..

(هذا أول مسجد أسمع فيه هذا الكلام).

❋❋❋❋❋

وكان حقاً علينا ... نصر المؤمنين

– وليس لأحد حق على الله.. إلا أن يحق الله على نفسه ما يشاء لمن يشاء...

كما في حديث معاذ بن جبل رضي الله عنه قال: «**بينا أنا رديف النبي ﷺ، ليس بيني وبينه إلا آخِرَةُ الرحل، فقال: يا معاذ، قلت: لبيك رسول الله وسعديك ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ قلت: لبيك رسول الله وسعديك قال: هل تدري ما حق الله على عباده؟ قلت: الله ورسوله أعلم، قال: حق الله على عباده أن يعبدوه ولا يشركوا به شيئاً، ثم سار ساعة ثم قال: يا معاذ بن جبل، قلت: لبيك رسول الله وسعديك، فقال: هل تدري ما حق العباد على الله إذا فعلوه قلت الله ورسوله أعلم: قال: حق العباد على الله أن لا يعذبهم**». (متفق عليه).

– والمعنى؟

– أن الله أثبت الحق على نفسه سبحانه وتعالى منذ الأزل إلى المنتهى.. أنه ينصر المؤمنين.. كما في قوله تعالى:

﴿ وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَآءُوهُم بِٱلْبَيِّنَٰتِ فَٱنتَقَمْنَا مِنَ ٱلَّذِينَ أَجْرَمُوا۟ ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾ ﴾ (الروم).. أي ملتزم..

وفي التفسير: «أي أوجبنا على أنفسنا وجعلناه من جملة الحقوق المتعينة.. فلا بد من وقوعه». (التحرير)

نظر إليّ مستغرباً... طالباً مزيد تفصيل.

- وهنا لا بد أن نرجع إلى السنن الإلهية وأنها قائمة على السببية.. والشرط والجـزاء... بمعنى.. إذا توافرت أسباب النصر جاء النصر من الله عز وجل.. هذه سنة الله الثابتة الدائمة النافذة.. وإذا تأخر سبب من الأسباب... لم يأتِ النصر.. ولنا عبرة في غزوة أحد.. وغزوة حنين!!!

- لو نقرأ الآية مرة ثانية.

- نعم.. يقول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا ۖ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ ﴿٤٧﴾﴾ (الروم).

والحديث للنبي ﷺ... كما فعلنا بالماضين من رسلنا عندما جاؤوا أقوامهم بالبراهين... ورأوا هذه الآيات... انتقمنا منهم.. ونصرنا المؤمنين.. كذلك نفعل مع قومك لأنها سنة من سنن الله!!!

فهو وعد للنبي محمد ﷺ بالنصر!!!

- تذكرت آية أخرى.. فيها، (كذلك حقاً علينا ننج المؤمنين)!

- نعم.. هذه سنة أخرى من سنن الله عز وجل وردت في سورة يونس وهي قوله تعالى:

﴿فَهَلْ يَنتَظِرُونَ إِلَّا مِثْلَ أَيَّامِ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِهِمْ ۚ قُلْ فَانتَظِرُوا إِنِّي مَعَكُم مِّنَ الْمُنتَظِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ثُمَّ نُنَجِّي رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا ۚ كَذَٰلِكَ حَقًّا عَلَيْنَا نُنجِ الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٠٣﴾﴾.

فإذا انقطعت الأسباب.. بالمؤمنين.. وقد توافرت فيهم خصائص الإيمان.. أنجاهم الله عز وجل.. كما فعل بأتباع موسى:

﴿فَلَمَّا تَرَٰٓءَا ٱلْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَٰبُ مُوسَىٰٓ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّآ ۖ إِنَّ مَعِىَ رَبِّى سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَآ إِلَىٰ مُوسَىٰٓ أَنِ ٱضْرِب بِّعَصَاكَ ٱلْبَحْرَ ۖ فَٱنفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَٱلطَّوْدِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُۥٓ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا ٱلْءَاخَرِينَ ﴿٦٦﴾﴾ (الشعراء).

ولكن يجب أن تتحقق (أسباب النصر).. (وأسباب النجاة).. الظاهرة والباطنة.. والله عز وجل محيط بكل شيء يعلم إن كانت الفئة المؤمنة حققت الأسباب أم لا... ولذلك.. إذا تأخر النصر عن فئة مؤمنة... تقاتل فئة كافرة ظالمة طاغية.. فاعلم يقيناً أن شرطاً من شروط النصر قصرت فيه الفئة المؤمنة!!

كان حوارنا بعد صلاة الجمعة... بعد خطبة تناول فيها الشيخ أسباب بلاء المؤمنين... وقتل أكثر من أربعين ألفاً منهم وتشريد أكثر من مليون منهم... وهدم أكثر من مئتي ألف بيت من بيوت المسلمين!!

تابع صاحبي:

- كأنك تقول إن الدعاء بالنصر دون الأخذ بالأسباب لا يستجاب؟

- بل من العبث بالدعاء أن يدعو المرء قبل أخذ الأسباب.. فهل تدعو الله أن يرزقك.. وأنت لا تسعى للرزق؟.. وهل تدعو أن يهديك وأنت لا تأخذ أسباب الهدية؟ وهل تدعو بأن يشفيك وأنت لا تسعى في علاج مرضك؟..

كذلك النصر.. والعزة.. والتمكين.. كلها نتائج لأسباب يجب أن تأخذ

بها حتى نصل إلى النتيجة.. وإلا وقعنا في «الأماني» التي هي أمنيات دون بذل الأسباب... وهي مما ذم الله عز وجل!!

– كأنك تشير إلى خطأ ما فعله المجاهدون في غزة في السابع من أكتوبر ٢٠٢٤م..

– أنا لا أشير إلى شيء ولكن أذكر قواعد في (السنن الإلهية)، ولكن إن أردت فتوى فيما جرى، فإليك فتوى أحد أعلام أهل غزة وهو الدكتور سلمان الداية.. العميد السابق لكلية الشريعة والقانون في الجامعة الإسلامية التابعة لحماس في غزة.. تحت عنوان: «انتهاك المبادئ الإسلامية التي تحكم الجهاد»..

قال: إن حماس فشلت في الوفاء بالتزماتها بإبعاد المقاتلين عن منازل المدنيين العزل وملاجئهم وتوفير الأمن والسلامة قدر الإمكان في مختلف جوانب الحياة الأمنية والاقتصادية والصحية والتعليمية وتوفير ما يكفي من الإمدادات لهم.. وأشار إلى أن دم المسلم أغلى عند الله من الكعبة المشرفة... يشير إلى حديث النبي ﷺ...

نظر النبي ﷺ إلى الكعبة فقال: «لا إله إلا الله ما أطيبك وأطيب ريحك وأعظم حرمتك والمؤمن أعظم حُرمة عند الله منك» قال الألباني.. حديث يستشهد به!!!

❋❋❋❋❋

ولو قاتلكم الذين كفروا لَوَلَّوا الأدبار

– هذه الآية من سورة الفتح.. يذكر الله فيها إحدى السنن الإلهية التي لا تتبدل... وبصراحة... حيرتني.. وذلك أن معاركنا الأخيرة مع «الكفار».. كانت جيوشنا هي التي تولي الأدبار؟!

لم يخفِ صاحبي علامات الاستفهام التي كانت واضحة في طريقة حديثه وتعابير وجهه..

ابتسمت..

– هاتان هما الآيتان الثانية والعشرون والثالثة والعشرون من سورة الفتح يبين الله عز وجل موقفاً من مواقف المؤمنين مع الكفار...

ونص الآيتين: ﴿وَلَوْ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيًّا وَلَا نَصِيرًا ﴿٢٢﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ (الفتح).

وحتى تكتمل الصورة نقرأ الآيتين قبلها: ﴿وَعَدَكُمُ ٱللَّهُ مَغَانِمَ كَثِيرَةً تَأْخُذُونَهَا فَعَجَّلَ لَكُمْ هَٰذِهِۦ وَكَفَّ أَيْدِىَ ٱلنَّاسِ عَنكُمْ وَلِتَكُونَ ءَايَةً لِّلْمُؤْمِنِينَ وَيَهْدِيَكُمْ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿٢٠﴾ وَأُخْرَىٰ لَمْ تَقْدِرُوا۟ عَلَيْهَا قَدْ أَحَاطَ ٱللَّهُ بِهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢١﴾﴾ (الفتح).

نزلت هذه الآية في الحديبية، وذلك أن جمعاً من المشركين أرادوا أخذ الرسول ﷺ والمسلمين على حين غرة، فأوحى الله إلى نبيه ﷺ بأمرهم فأَسرَهم.. قالوا كانوا ثلاثين أو خمسين رجلاً.. ثم أفرج عنهم.. فيخبر الله

عز وجل أنه لو كان هناك قتال بينكم وبين أهل مكة.. ﴿لَوَلَّوُا۟ ٱلْأَدْبَـٰرَ﴾.. ولكن الله كفَّ أيدي الكفار.. ولم يقع قتال.. وعلل ذلك بقوله عز وجل في الآية (٢٥):

﴿هُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَصَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْهَدْىَ مَعْكُوفًا أَن يَبْلُغَ مَحِلَّهُۥ ۚ وَلَوْلَا رِجَالٌ مُّؤْمِنُونَ وَنِسَآءٌ مُّؤْمِنَـٰتٌ لَّمْ تَعْلَمُوهُمْ أَن تَطَـُٔوهُمْ فَتُصِيبَكُم مِّنْهُم مَّعَرَّةٌۢ بِغَيْرِ عِلْمٍ ۖ لِّيُدْخِلَ ٱللَّهُ فِى رَحْمَتِهِۦ مَن يَشَآءُ ۚ لَوْ تَزَيَّلُوا۟ لَعَذَّبْنَا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿٢٥﴾﴾.

- أعلم كل هذا.. وجميل أن أتيت بسبب النزول.. والتفسير لهذه الآيات أنا إشكالي في قول الله تعالى:

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِى قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾ (الفتح).

المعنى الذي يتبادر إلى ذهني.. أنه لو كان قتال بين المؤمنين والكفار.. فإن الكفار يولون الأدبار.. هذه من (سنن الله) التي لا تتبدل ولا تتأخر!!

كان صاحبي متحمساً بعض الشيء...

- دعني أبيّن لك المعنى حتى يزول الإشكال من ذهنك... ذلك أنك يجب أن تطلع على كامل المشهد حتى تعرف المعنى المراد من هذه السنة الإلهية.

في التحرير والتنوير.. المعنى: سنّ الله ذلك سنة أي جعله عادة له أن ينصر المؤمنين على الكافرين إذا كانت نية المؤمنين نصر دين الله كما قال تعالى:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ٧﴾ (محمد).

وقال تعالى: ﴿وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ٤٠﴾ (الحج)...

أي ضمِن الله النصر للمؤمنين بأن تكون عاقبة حروبهم نصراً، وإن كان يغلبون في بعض المواقع كما وقع في أُحد، وقد قال تعالى: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ٨٣﴾ (القصص)، وقال: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلتَّقۡوَىٰ ١٣٢﴾ (طه)، وإنما يكون كمال النصر على حسب ضرورة المؤمنين، وعلى حسب الإيمان والتقوى، ولذلك كان هذا الوعد غالباً للرسول ومن معه فيكون النصر تاماً في حالة الخطر كما كان يوم بدر ويكون سجالاً في حالة السعة كما في وقعة أحد، وقد دل على ذلك قول النبي ﷺ يوم بدر:

«**اللهم إن تهلك هذه العصابة لا تعبد في الأرض**» (انتهى)، وتفصيل هذا الموقف ورد في صحيح مسلم.. عن عمر بن الخطاب رضي الله عنه، قال: لـمَّا كان يوم بدر.. نظر النبي ﷺ إلى أصحابه، وهم ثلاث مائة ونيف، ونظر إلى المشركين فإذا هم ألف وزيادة فاستقبل النبي ﷺ القبلة، ثم مدَّ يديه وعليه رداؤه وإزاره، ثم قال: **اللهم أين ما وعدتني؟ اللهم أنجز لي ما وعدتني، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام، فلا تعبد في الأرض أبداً**.. فما زال يستغيث ربه عز وجل ويدعوه حتى سقط رداؤه فأتاه أبو بكر رضي الله عنه، فأخذ رداءه فردَّه.. ثم التزمه من ورائه ثم قال: يا نبي الله كفاك مناشدتك ربك فإنه سينجز لك ما وعدك وأنزل الله عز وجل:

﴿إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾﴾ (الأنفال)... فكانت هزيمة الكفار ونصر المؤمنين..

عقَّب صاحبي...

- للأسف.. كثير من الشباب المتحمس يظن أنه ما التقى جيش من المؤمنين بجيش من الكفار إلا كان النصر للمؤمنين!! فيلقون بأنفسهم في الهلاك دون اتخاذ الأسباب... ودون علم محيط بأسباب النصر... لفهمهم الخطأ بهذه السنة الإلهية.. وأنا شخصياً لم يكن لدي فهم شامل لهذه السنة...

- دعني أكمل لك تفصيل هذه السنة من كتب التفسير...

ويكون لمن بعد الرسول ﷺ من جيوش المسلمين على حسب تمسكهم بوصايا الرسول ﷺ ففي (صحيح البخاري) عن أبي سعيد الخدري عن النبي ﷺ: «**يأتي زمان يغزو فآم من الناس فيقال: فيكم من صحب النبي ﷺ؟ فيقال: نعم، فيفتح عليه، ثم يأتي زمان فيقال: فيكم من صحب أصحاب النبي؟ فيقال: نعم فيفتح ثم يأتي زمان فيقال: فيكم من صحب من صاحب النبي؟ فيقال: نعم فيفتح**».

ومعنى (خلت) مضت وسبقت من أقدم عصور اجتلاد الحق والباطل.

وفائدة هذا الوصف الدلالة على اطرادها وثباتها.

والمراد: أن ذلك سنة الله مع الرسل، قال تعالى: ﴿كَتَبَ اللَّهُ لَأَغْلِبَنَّ أَنَا وَرُسُلِي إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴿٢١﴾﴾ (المجادلة).

ولما وصف تلك السنة بأنها راسخة فيما مضى أعقب ذلك بوصفها بالتحقق في المستقبل تعميماً للأزمنة بقوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾، لأن اطراد ذلك النصر في مختلف الأمم والعصور وإخبار الله تعالى به على لسان رسله وأنبيائه يدل على أن الله أراد تأييد أحزابه فيعلم أنه لا يستطيع كائن أن يحول دون إرادة الله تعالى...

وفي تفسير السعدي:

هذه بشارة من الله لعباده المؤمنين، بنصرهم على أعدائهم الكافرين، وأنهم لو قابلوهم وقاتلوهم ﴿لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا﴾، يتولى أمرهم، ﴿وَلَا نَصِيرٗا ٢٢﴾، ينصرهم ويعينهم على قتالكم، بل هم مخذولون مغلوبون وهذه سنة الله في الأمم السابقة، أن جند الله هم الغالبون، ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾.

وفي تفسير الطبري:

يقول تعالى ذكره للمؤمنين به من أهل بيعة الرضوان: ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ﴾ بالله أيها المؤمنون بمكة ﴿لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾، يقول: لانهزموا عنكم، فولوكم أعجازهم، وكذلك يفعل المنهزم في الحرب ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ٢٢﴾، يقول: ثم لا يجد هؤلاء الكفار المنهزمون عنكم، المولوكم الأدبار، ولياً يواليهم على حربكم، ولا نصيراً ينصرهم عليكم، لأن الله تعالى ذكره معكم.

عن قتادة قوله: ﴿وَلَوۡ قَٰتَلَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوَلَّوُاْ ٱلۡأَدۡبَٰرَ﴾ يعني كفار قريش، قال الله: ﴿ثُمَّ لَا يَجِدُونَ وَلِيّٗا وَلَا نَصِيرٗا ٢٢﴾ بنصرهم من الله.

وقوله: ﴿ سُنَّةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِي قَدۡ خَلَتۡ مِن قَبۡلُۖ ﴾، لو قاتلكم هؤلاء الكفار من قريش، لخذلهم الله حتى يهزمهم عنكم خذلانه أمثالهم من أهل الكفر به، الذين قاتلوا أولياءه من الأمم الذين مضوا قبلهم.

وقوله: ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٢٣﴾ يقول جل ثناؤه لنبيه محمد ﷺ: ولن تجد يا محمد لسنة الله التي سنها في خلقه تغييراً، بل ذلك دائم للإحسان جزاءه من الإحسان، وللإساءة والكفر العقاب والنكال.

❋❋❋❋❋

سنة الاستدراج

– لغةً، استدرجه، أدناه منه على التدريج فتدرج معه، درجة بعد درجة، وفي (المفردات)، سنستدرجهم، نأخذهم درجة فدرجة، فلم نباغتهم، بل نجرهم إلى العذاب قليلاً قليلاً.

يحتاج العبد أن تكون لديه ثوابت، لا يحيد عنها مهما تكالبت عليه المصائب وتغيرت من حوله المعطيات، ثوابت في العقيدة، بتفاصيلها كلها.

– هل لنا بتفصيل أكثر شيخنا الفاضل؟

– في زمننا هذا يُفتن كثير من الناس بما لدى الكفار والملحدين، بل والفسقة والفجرة، من متاع الدنيا، مع ما في المسلمين من ضعف، وذلة، وفقر، وتخلف؛ وذلك أن حال المسلمين نتيجة ما كسبت أيديهم، وما لدى الكافرين استدراج من الله عز وجل.

كانت خاطرة علمية، لأحد أساتذتنا في كلية الشريعة، ألقاها دون سابق ترتيب بعد صلاة المغرب، وعادة شيخنا أنه إذا قُدِّم للصلاة، أن يلقي خاطرة بعدها.

– لو تتبعنا آيات الكتاب التي ذكر الله فيها الاستدراج، نجد أن الله يستدرج الكافرين والعصاة والمكذبين بالرسل، بمعنى أن الله يمهلهم، وربما وسَّع عليهم من أمور الدنيا، ثم يأخذهم فلم يفلتهم، كما في الحديث، ولنقرأ شيئا من هذه الآيات.

يقول تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ (الأعراف).

ويقول سبحانه-: ﴿فَذَرْنِى وَمَن يُكَذِّبُ بِهَٰذَا ٱلْحَدِيثِ ۖ سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾ وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ (القلم).

أي: دعني والمكذبين بالقرآن العظيم فإن علي جزاءهم، ولا تستعجل لهم ﴿سَنَسْتَدْرِجُهُم مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ فنمدهم بالأموال والأولاد، ونمدهم في الأرزاق والأعمار؛ ليغتروا ويستمروا على ما يضرهم فإن هذا من كيد الله لهم، وكيد الله لأعدائه، متين، قوي يبلغ من ضررهم وعذابهم فوق كل مبلغ.

ومعنى ﴿مِّنْ حَيْثُ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٤٤﴾﴾ أن استدراجهم المفضي إلى حلول العقاب بهم أحوال وأسباب لا يتفطنون إلى أنها مفضية بهم إلى الهلاك ، وذلك أجلب لقوة حسرتهم عند حلول المصائب بهم.

﴿وَأُمْلِى لَهُمْ ۚ﴾ أي: أُمْهِلُهُم حتى يظنوا أنهم لا يؤخذون ولا يعاقبون، فيزدادون كفراً وطغياناً وشراً إلى شرهم وبذلك تزيد عقوبتهم، ويتضاعف عذابهم، فيضرون أنفسهم من حيث لا يشعرون، ولهذا قال: ﴿إِنَّ كَيْدِى مَتِينٌ ﴿٤٥﴾﴾ أي: قوي بليغ.

ويبين الله المراد من توسعة متاع الدنيا على الكفار؛ وذلك لتثبيت المؤمنين وبيان (سنة إلهية) نافذة فيقول سبحانه:

﴿لَا يَغُرَّنَّكَ تَقَلُّبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ فِى ٱلْبِلَٰدِ ﴿١٩٦﴾ مَتَٰعٌ قَلِيلٌ ثُمَّ مَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ ﴿١٩٧﴾﴾ (آل عمران).

ويقول سبحانه نافياً منطق الكفار بأنهم في سعة من عيشهم لمكانتهم عند الله: ﴿وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ أَنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ خَيْرٌ لِّأَنفُسِهِمْ ۚ إِنَّمَا نُمْلِى لَهُمْ لِيَزْدَادُوٓاْ إِثْمًا ۚ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٧٨﴾﴾ (آل عمران).

من جهلهم واغترارهم بمتاع الحياة الدنيا ظنوا أن الآخرة كالدنيا، ينعم عليهم فيها أيضاً بالمال والولد، كما أنعم عليهم في الدنيا - وجاء مبيناً في آيات أخر، كقوله سبحانه:

﴿وَلَئِنْ أَذَقْنَٰهُ رَحْمَةً مِّنَّا مِنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُ لَيَقُولَنَّ هَٰذَا لِى وَمَآ أَظُنُّ ٱلسَّاعَةَ قَآئِمَةً وَلَئِن رُّجِعْتُ إِلَىٰ رَبِّىٓ إِنَّ لِى عِندَهُۥ لَلْحُسْنَىٰ ۚ فَلَنُنَبِّئَنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِمَا عَمِلُواْ وَلَنُذِيقَنَّهُم مِّنْ عَذَابٍ غَلِيظٍ ﴿٥٠﴾﴾ ﴿فصلت). وقوله عز وجل: ﴿أَفَرَءَيْتَ ٱلَّذِى كَفَرَ بِـَٔايَٰتِنَا وَقَالَ لَأُوتَيَنَّ مَالًا وَوَلَدًا ﴿٧٧﴾﴾ (مريم)، وقوله سبحانه: ﴿وَقَالُواْ نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَٰلًا وَأَوْلَٰدًا وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾﴾ (سبأ).

وفي أحوال الأمم السابقة عبرة لأولي الألباب ولا سيما عندما ردوا دعوة رسلهم وحاربوهم واستهزؤوا بما جاءت به رسلهم يقول تعالى: ﴿وَلَقَدِ ٱسْتُهْزِئَ بِرُسُلٍ مِّن قَبْلِكَ فَأَمْلَيْتُ لِلَّذِينَ كَفَرُواْ ثُمَّ أَخَذْتُهُمْ ۖ فَكَيْفَ كَانَ عِقَابِ ﴿٣٢﴾﴾ (الرعد).

وقد استهزأ قوم نوح به -عليه السلام-: ﴿وَيَصْنَعُ ٱلْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلَأٌ مِّن قَوْمِهِۦ سَخِرُواْ مِنْهُ ۚ قَالَ إِن تَسْخَرُواْ مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴿٣٨﴾﴾ (هود).

واستهزأت عاد بهود -عليه السلام-: ﴿فَأَسْقِطْ عَلَيْنَا كِسَفًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١٨٧﴾﴾ (الشعراء).

واستهزأت ثمود بصالح -عليه السلام- ﴿قَالَ ٱلْمَلَأُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِن قَوْمِهِۦٓ إِنَّا لَنَرَىٰكَ فِى سَفَاهَةٍ وَإِنَّا لَنَظُنُّكَ مِنَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٦٦﴾﴾ (الأعراف).

واستهزؤوا بشُعيب -عليه السلام-: ﴿قَالُوا۟ يَٰشُعَيْبُ أَصَلَوٰتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ ءَابَآؤُنَآ أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِىٓ أَمْوَٰلِنَا مَا نَشَٰٓؤُا۟ ۖ إِنَّكَ لَأَنتَ ٱلْحَلِيمُ ٱلرَّشِيدُ ﴿٨٧﴾﴾ (هود).

واستهزأ فرعون بموسى -عليه السلام-: ﴿أَمْ أَنَا۠ خَيْرٌ مِّنْ هَٰذَا ٱلَّذِى هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ ﴿٥٢﴾﴾ (الزخرف).

كانت الخاطرة مترابطة، مركزة، لم يترك أحد من المصلين مكانه حتى انتهى الشيخ من خاطرته، صاحَبته، بعد الأذكار وأداء سنة المغرب.

- هذه سنة عظيمة من سنن الله عز وجل يغفل عنها الناس.

- بل يغفل عنها من لم تتمكن العقيدة من قلبه، ولم يملأ نور العلم صدره، ذلك أن الناس يرون ظاهر الحياة ويغترون بها، وسنن الله، ولاسيما في الأمم لا يراها الإنسان خلال حياته القصيرة؛ لأنها تحدث على مدى مئات السنين، كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِٱلْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ (الحج).

فالمؤمن يجزم بما سيحدث في الأفراد والأمم، ولا يشك أن وعد الله حق، وسنته سبحانه نافذة، وما تأخر حدوثها إلا لحكمة ولكن الإنسان عجول!

سنة الله في الظالمين

- ما حكم معرفة السنن الإلهية؟

- السنن الإلهية من فروض الكفاية، ولكن معرفتها تزيد المؤمن تعظيماً لله واطمئناناً لوعده ويقيناً بوعيده، وتيسر للعبد استشراف الأحداث قبل وقوعها، وذلك أن المقدمات تؤدي إلى نتائج محتومة، الماديون يتنبؤون بالنتائج بناء على معطيات مادية بحتة، أما المؤمن فهو أدق في معرفة الأحداث ونتائجها؛ لأنه أعلم بالقوانين الإلهية الثابتة والمطردة والشاملة لكل زمان ومكان ولكل الأمم والأفراد.

صاحبي، كثير الأسئلة، يحب أن يعرف تفاصيل الأشياء، لا يكتفي بالعموميات، يزورني في المسجد مرة كل شهر بين المغرب والعشاء، أحاديثنا لا تخرج عن قضايا العقيدة والأحاديث النبوية، شرحاً، وإسناداً.

- وما هي (سنة الله) في الظلم والظالمين؟

أظنك تعرف الإجابة، ولكن دعني أذكر بعض الآيات التي تبيّن هذه السنة الإلهية.

يقول تعالى: ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَتَحْنَا عَلَيْهِمْ أَبْوَٰبَ كُلِّ شَىْءٍ حَتَّىٰٓ إِذَا فَرِحُوا۟ بِمَآ أُوتُوٓا۟ أَخَذْنَٰهُم بَغْتَةً فَإِذَا هُم مُّبْلِسُونَ ﴿٤٤﴾ فَقُطِعَ دَابِرُ ٱلْقَوْمِ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ ۚ وَٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٥﴾﴾ (الأنعام).

ويقول سبحانه: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِرُسُلِهِمْ لَنُخْرِجَنَّكُم مِّنْ أَرْضِنَآ أَوْ لَتَعُودُنَّ فِى مِلَّتِنَا ۖ فَأَوْحَىٰٓ إِلَيْهِمْ رَبُّهُمْ لَنُهْلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾﴾ (إبراهيم).

ويقول عز وجل: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ (هود).

ويقول سبحانه: ﴿فَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَهْلَكْنَٰهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ فَهِىَ خَاوِيَةٌ عَلَىٰ عُرُوشِهَا وَبِئْرٍ مُّعَطَّلَةٍ وَقَصْرٍ مَّشِيدٍ ﴿٤٥﴾﴾ (الحج).

ويقول عز وجل: ﴿وَكَأَيِّن مِّن قَرْيَةٍ أَمْلَيْتُ لَهَا وَهِىَ ظَالِمَةٌ ثُمَّ أَخَذْتُهَا وَإِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿٤٨﴾﴾ (الحج).

فهذه الآيات تبين أن الله يهلك الأمم الظالمة، وربما (يملي لها) أحيانا أي يتركها لفترة، ثم يأخذها أخذاً شديداً؛ فسنة الله في الأمم الظالمة، إهلاكها، وإن كانت مسلمة، كما قال ابن تيمية رحمه الله: «إن الله يقيم الدولة العادلة وإن كانت كافرة، ولا يقيم الدولة الظالمة وإن كانت مسلمة»، أما الأفراد، فإن النبي ﷺ بيّن أن الظالم ينال جزاءه -في الغالب- في الدنيا قبل الآخرة، كما في الحديث عن أبي بكرة نفيع بن الحارث - رضي الله عنه - قال رسول الله ﷺ: «**ما من ذنب أحرى أن يعجل الله لصاحبه العقوبة في الدنيا مع ما يدخره له في الآخرة من قطيعة الرحم والبغي**» (صحيح أبي داوود)، وكذلك تحذيره ﷺ من دعوة المظلوم، عندما بعث معاذ بن جبل إلى اليمن، فقال له: «**اتق دعوة المظلوم فإنه ليس بينها وبين الله حجاب**» (البخاري).

-هذه الأحاديث يعرفها الجميع وقليل من يطبقها، وذلك أنهم يرون الظالمين يتمتعون ويمرحون، والمظلومون باقون في قهرهم ومظلمتهم.

- قاطعته: وهنا يأتي التفاوت في الإيمان واليقين، الناس درجات في

إيمانهم بوعد الله ووعيده، منهم من لا يعتريه أدنى شك، أن وعد الله حق، ولا يخلف الله الميعاد، وأنه يهلك الظالم وينتصر للمظلوم، ولو بعد حين، وأن الله يمهل ولا يهمل، هذه العقيدة تضعف أحياناً عند بعض الناس إن لم يروا النتائج أمام أعينهم، أما أصحاب اليقين، فلا يشكون في أي من هذه الأمور؛ لأنها ثبتت في كتاب الله وسنة النبي ﷺ، كما قال تعالى:

﴿ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾ ﴾ (الإسراء).

وحرم الله عز وجل الظالمين (الفلاح)؛ فقال عز وجل: ﴿ وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى ٱللَّهِ كَذِبًا أَوْ كَذَّبَ بِـَٔايَٰتِهِۦٓ ۗ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢١﴾ ﴾ (الأنعام).

وقال تعالى: ﴿ وَقَالَ مُوسَىٰ رَبِّىٓ أَعْلَمُ بِمَن جَآءَ بِٱلْهُدَىٰ مِنْ عِندِهِۦ وَمَن تَكُونُ لَهُۥ عَٰقِبَةُ ٱلدَّارِ ۖ إِنَّهُۥ لَا يُفْلِحُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٣٧﴾ ﴾ (القصص).

دخل المؤذن كعادته قبل الموعد بعشر دقائق، شاركنا المجلس ينتظر أن يحين الوقت.

- وفي الحديث المتفق عليه عن أبي موسى - رضي الله عنه - قال: قال رسول الله ﷺ: «إنه الله ليملي للظالم حتى إذا أخذه لم يفلته، وقرأ: ﴿ وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾ ﴾ (هود).

ومن الهدي النبوي، أن المسلم يجب عليه نصرة المظلوم والأخذ على يد الظالم، ومنع وقوع الظلم، كما في الحديث: عن أبي بكر الصديق -

رضي الله عنه – قال: يا أيها الناس إنكم تقرؤون هذه الآية: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ١٠٥﴾ (المائدة).

وإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**إن الناس إذا رأوا الظالم فلم يأخذوا على يديه أوشك أن يعمهم الله بعقاب من عنده**» (صحيح ابي داوود).

وفي تفسير قول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٢٩﴾ (الأنعام).

نجعل بعضهم أولياء بعض، وجعل الفريقين ظالمين؛ لأنّ الذي يتولّى قوماً يصير منهم ، فإذا جعل الله فريقاً أولياء للظالمين فقد جعلهم ظالمين.

قال تعالى: ﴿وَلَا تَرۡكَنُوٓاْ إِلَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ فَتَمَسَّكُمُ ٱلنَّارُ وَمَا لَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ مِنۡ أَوۡلِيَآءَ ثُمَّ لَا تُنصَرُونَ ١١٣﴾ (هود). وقال: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ٥١﴾ (المائدة).

ولذلك قال المفسرون: يجوز أن يكون معنى: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُوَلِّي بَعۡضَ ٱلظَّٰلِمِينَ بَعۡضَۢا بِمَا كَانُواْ يَكۡسِبُونَ ١٢٩﴾ نجعل بعضهم ولاة على بعض، أي نسلّط بعضهم على بعض، وقد تشمل الآية بطريق الإشارة كل ظالم، فتدل على أنّ الله سلّط على الظالم من يظلمه، ومن أجل ذلك قيل: إن لم يُقلع الظالم عن ظلمه سُلّط عليه ظالم آخر. قال الفخر: إن أراد الرّعيّةُ أن يتخلّصوا من أمير ظالم، فليتركوا الظلم.

سنة الله في المنافقين

– بعض الأحكام الشرعية تبدو لبعض الناس (غير منطقية)، ولكن المؤمن يعلم يقيناً أنها من لدنّ حكيم عليم، يؤمن بها ويعتقدها ويطبقها وإن لم تظهر له حكمتها، من ذلك زواج المسلم من النصرانية، وتحريم زواج الكافرة، وتحليل البيع وتحريم الربا، وإن كانت بعض المعاملات متشابهة، إباحة أكل طعام أهل الكتاب وتحريم طعام الكفار من الذبائح، وأحكام المنافقين ومعاملتهم بالإسلام رغم أنهم أشد خطراً من الكفار.

– دعنا نتوقف عند هذه الأخيرة.

– تعني التعامل مع المنافقين؟

– نعم.

كنت وصاحبي في رحلة قصيرة إلى لبنان، وقد انقطعنا عن هذا البلد الجميل لأكثر من ثلاث سنوات، أراد صاحبي تفقد منزله الصغير في منطقة (حمانا)، غادرنا يوم السبت على أن نرجع يوم الاثنين.

– المنافقون فئة أظهرت الإيمان وأبطنت الكفر، شهد الله على كذبهم وأنزل سورة كاملة فيهم، غير الآيات الكثيرة في بيان أخلاقهم وتصرفاتهم، في سورة البقرة وآل عمران والنساء والتوبة التي تسمى (الفاضحة)؛ لكثرة ما ذكرت من أخلاقهم وتصرفاتهم، بقوله عز وجل: ومنهم، ومنهم، ومنهم، ولم تظهر هذه الفئة إلا في المدينة بعد هجرة النبي ﷺ.

– وما سنة الله عزَّ وجلَّ فيهم؟

- يقول الله تعالى: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ لَنُغْرِيَنَّكَ بِهِمْ ثُمَّ لَا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَآ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٦٠﴾ مَّلْعُونِينَ ۖ أَيْنَمَا ثُقِفُوٓا۟ أُخِذُوا۟ وَقُتِّلُوا۟ تَقْتِيلًا ﴿٦١﴾ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ﴿٦٢﴾﴾ (الأحزاب).

قررنا قضاء الليلتين في فندق (وادي -فيو)، تجنباً لعملية تنظيف البيت وتجهيزه. كان حديثنا بعد وجبة الإفطار، نحتسي القهوة في الشرفة المطلة على الوادي الأخضر.

- هذه الآيات وغيرها تبين أن الله عز وجل أمر رسوله ﷺ بالسكوت عن المنافقين وعدم قتالهم ما داموا لا يؤذون المسلمين علانية، وكان المنافقون يحذرون أن ينزل أمرٌ من الله لرسوله أن يستأصلهم، فكانوا يرتكبون الأخطاء ويعتذرون، ويذنبون ثم يرجعون، ويقولون ثم ينكرون، هكذا كان ديدنهم، وفي هذه الآيات من سورة الأحزاب، أعطاهم الله إنذاراً واضحاً، إن لم ينتهوا سيأتي الأمر باستئصالهم وإخراجهم من المدينة، مع استحقاقهم للعنة الله في جميع الأحوال، وفي تفسير هذه الآيات إليك ما ورد: ﴿لَّئِن لَّمْ يَنتَهِ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ﴾، أي: مرض شك أو شهوة ﴿وَٱلْمُرْجِفُونَ فِى ٱلْمَدِينَةِ﴾، أي: المخوفون المرهبون من الأعداء، المحدثون بكثرتهم وقوتهم، وضعف المسلمين. ولم يذكر ما الذي ينتهون عنه، ليعم ذلك، كل ما توحي به أنفسهم إليهم، وتوسوس به، وتدعو إليه من الشر، من التعريض بسب الإسلام وأهله والإرجاف بالمسلمين وتوهين قواهم، والتعرض للمؤمنات بالسوء والفاحشة، وغير ذلك من المعاصي الصادرة، من أمثال هؤلاء.

﴿لَنُغۡرِيَنَّكَ بِهِمۡ﴾ أي: نأمرك بعقوبتهم وقتالهم ونسلطك عليهم، ثم إذا فعلنا ذلك، لا طاقة لهم بك، وليس لهم قوة ولا امتناع، ولهذا قال: ﴿ثم لا يُجَاوِرُونَكَ فِيهَا إِلا قَلِيلا﴾ أي: لا يجاورونك في المدينة إلا قليلاً بأن تقتلهم أو تنفيهم.

وهذا فيه دليل، لنفي أهل الشر، الذين يُتضرر بإقامتهم بين أظهر المسلمين، فإن ذلك أحسم للشر، وأبعد له، ويكونون ﴿مَّلۡعُونِينَۖ أَيۡنَمَا ثُقِفُوٓاْ أُخِذُواْ وَقُتِّلُواْ تَقۡتِيلًا ٦١﴾، أي مبعدين أين وجدوا لا يحصل لهم أمن ولا يقرّ لهم قرار، يخشون أن يقتلوا، أو يحبسوا، أو يعاقبوا.

﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِي ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ مِن قَبۡلُۖ﴾ أن من تمادى في العصيان، وتجرأ على الأذى، ولم ينته منه فإنه يعاقب عقوبة بليغة. ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلا ٦٢﴾، أي تغييراً، بل سنته تعالى وعادته جارية مع الأسباب المقتضية لأسبابها.

وحرف ﴿فِي﴾ للظرفية المجَازية، شُبهت السنة التي عوملوا بها بشيء في وسطهم، كناية عن تغلغله فيهم وتناوله جميعهم، ولو جاء الكلام على غير المجاز لقيل: سنة الله مع الذين خلوا.

و﴿ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾ الذين مَضَوا وتقدموا. والأظهر أن المراد بهم من سبقوا من أعداء النبي ﷺ الذين أذن الله بقتلهم، مثل الذين قتلوا من المشركين، ومثل الذين قتلوا من يهود قريظة، وهذا أظهر؛ لأن ما أصاب أولئك أوقع في الموعظة؛ إذ كان هذان الفريقان على ذكرٍ من المنافقين وقد شهدوا بعضهم وبلغهم خبر بعض.

ويحتمل أيضاً أن يشمل ﴿ٱلَّذِينَ خَلَوۡاْ﴾ الأمم السالفة الذين غضب الله عليهم لأذاهم رسلهم؛ فاستأصلهم الله تعالى مثل قوم فرعون وأضرابهم. وذُيل بجملة ﴿وَلَن تَجِدَ لِسُنَّةِ ٱللَّهِ تَبۡدِيلٗا ٦٢﴾ لزيادة تحقيق أن العذاب يحيق بالمنافقين وأتباعهم إن لم ينتهوا عما هم فيه وأن الله لا يخالف سنته؛ لأنها مقتضى حكمته وعلمه فلا تجري متعلقاتها إلا على سنة واحدة.

والمعنى: لن تجد لسنن الله مع الذين خَلَوْا من قبل ولا مع الحاضرين ولا مع الآتين تبديلاً.

وفي سورة التوبة (الفاضحة) يقول تعالى:

﴿يَحۡذَرُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيۡهِمۡ سُورَةٞ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِي قُلُوبِهِمۡۚ قُلِ ٱسۡتَهۡزِءُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ مُخۡرِجٞ مَّا تَحۡذَرُونَ ٦٤ وَلَئِن سَأَلۡتَهُمۡ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلۡعَبُۚ قُلۡ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمۡ تَسۡتَهۡزِءُونَ ٦٥ لَا تَعۡتَذِرُواْ قَدۡ كَفَرۡتُم بَعۡدَ إِيمَٰنِكُمۡۚ إِن نَّعۡفُ عَن طَآئِفَةٖ مِّنكُمۡ نُعَذِّبۡ طَآئِفَةَۢ بِأَنَّهُمۡ كَانُواْ مُجۡرِمِينَ ٦٦﴾ (التوبة).

في هذه الآيات دليل على أن من أسرَّ سريرة خصوصاً السريرة التي يمكر فيها بدينه ويستهزئ به وبآياته ورسوله فإن الله تعالى يظهرها ويفضح صاحبها، ويعاقبه أشد العقوبة، وأن من استهزأ بشيء من كتاب الله أو سنة رسوله الثابتة عنه أو سخر بذلك أو تنقصه أو استهزأ بالرسول أو تنقصه فإنه كافر بالله العظيم.

سنة الله في المكر والماكرين (١)

يصفني صاحبي بـ(البيتوتي)، قلما تجدني خارج المنزل بعد صلاة العشاء، إلا لتلبية دعوة زفاف، أو قضاء حاجة ضرورية، أو مع الخواص بين فترة وأخرى.

دعاني للعشاء بمناسبة منزله الجديد، كانت دعوة خاصة مع صديق مشترك بيننا، ورابع لم ألتقه من قبل (أبو وائل)، بعد التعارف والمعتاد من الأحاديث، سألني:

- أنا من المتابعين لكتاباتك، وأكثر ما أحببت كلامك عن الأسماء والصفات؛ حيث كنت من المتخوفين من الخوض في هذا الباب؛ لأنه يتعلق بالله عز وجل، تعرف الشعور بأنك ترغب أن تتعلم وفي الوقت ذاته تخاف أن تقرأ شيئاً وتفهمه بطريقة خطأ، فتتوقف؟.. هكذا كان وضعي مع هذا الباب، بصراحة.

أعجبني صدق أبى وائل، مع أنني لم ألتقه من قبل، تابع حديثه، بينما كنا أنا وأبو أحمد وأبو سعد نستمع:

- مثلاً، قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ (الأنفال)، وقوله تعالى: ﴿وَمَكَرُوا وَمَكَرَ اللَّهُ ۖ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ (آل عمران)، كنت أتوقف عند هاتين الآيتين وأمثالها، و(أخاف) أن أقرأ تفسيرها، فأتركها وأؤمن بها، مع أن في النفس شيئاً.

سكت قليلاً، ينتظر تعليقنا، كان مضيفنا (أبو أحمد)، أول المعلقين.

– لقد اطلعت على تفسير هذه الآية، من سورة الأنفال، وذلك أن أولها: ﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾.

في اللغة، المكر تدبيرٌ بالخفاء يفضي بالمكور به إلى ما لا يحب؛ فالكفار كانوا يخططون لأسر النبي ﷺ أو قتله أو إخراجه خفية، والله محيط بما يعملون، وفي المقابل يأتي تدبير الله بحفظ نبيه ونجاته، وسُقِطَ ويُسقَط في أيدي من أرادوا المكر به، فنسبة المكر لله، صفة مدح وثناء؛ لأنه يدبر لصالح أوليائه، ضد أعدائه، واستخدم اللفظ ذاته من باب المماثلة، ولا يمكر الله عز وجل إلا بمن يستحق ذلك؛ فهي صفة مقيدة بفئة محددة من أعداء الله.

تدخلت هنا.

– ولله عز وجل سنَّةٌ نافذة، في المكر والماكرين، بمعنى قانون ثابت لا يتغير ولا يتعطل ولا يحابي، مجمل هذا القانون، ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ ﴾ (فاطر:٤٣).

طلب (أبو سعد) تفصيلاً.

تابعت حديثي: – حتى نفهم الموضوع نبدأ بهاتين الآيتين وتمامهما: ﴿ وَأَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ لَئِن جَآءَهُمْ نَذِيرٌ لَّيَكُونُنَّ أَهْدَىٰ مِنْ إِحْدَى ٱلْأُمَمِ ۖ فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾ ﴾ (فاطر).

وقوله تعالى في سورة الأنعام: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِي كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَابِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾﴾ (الأنعام).

في هذه الآية يبين الله عز وجل أن (أكابر المجرمين) هم الذين يمكرون بالناس؛ وذلك حتى لا يظهر الحق، وحفاظاً على رئاستهم ومكانتهم وجاههم وسلطانهم، كما يفعل (الملأ)، من كل قوم، ووردت كلمة (المكر) بتصريفاتها أربعاً وأربعين مرة، في كتاب الله، وبتتبع الآيات نجد أن (المكر) وقع في الماضي، للأنبياء والصالحين، وسوف يقع دائما في المجتمعات، إلى يوم القيامة، ومكر الطغاة والظالمين بأهل الحق، يرجع عليهم، دائماً، وهذا (قانون إلهي)، ﴿قَدْ مَكَرَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى اللَّهُ بُنْيَانَهُم مِّنَ الْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ السَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَاهُمُ الْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ (النحل).

ويغفل هؤلاء الماكرون أن مكرهم مرصود، معلوم، ولكنهم لا يفقهون: ﴿وَإِذَا أَذَقْنَا النَّاسَ رَحْمَةً مِّن بَعْدِ ضَرَّاءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِي آيَاتِنَا ۚ قُلِ اللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (يونس)، فهو خزي عليهم في الدنيا، وعذاب لهم يوم القيامة.

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ الْعِزَّةَ فَلِلَّهِ الْعِزَّةُ جَمِيعًا ۚ إِلَيْهِ يَصْعَدُ الْكَلِمُ الطَّيِّبُ وَالْعَمَلُ الصَّالِحُ يَرْفَعُهُ ۚ وَالَّذِينَ يَمْكُرُونَ السَّيِّئَاتِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۖ وَمَكْرُ أُولَٰئِكَ هُوَ يَبُورُ ﴿١٠﴾﴾ (فاطر).

قاطعني (أبو سعد):

- أفهم من كلامك أن المكر يقوده (الأكابر) و(الملأ)، وعِلّية القوم الذين لهم القوة والسلطة والسطوة؟!

- نعم، وذلك أنهم يريدون أن يُخفوا ويغلفوا أذاهم وعذابهم للصالحين والمصلحين وأهل الحق، كما قال تعالى:

﴿ وَكَانَ فِي ٱلْمَدِينَةِ تِسْعَةُ رَهْطٍ يُفْسِدُونَ فِي ٱلْأَرْضِ وَلَا يُصْلِحُونَ ﴿٤٨﴾ قَالُوا۟ تَقَاسَمُوا۟ بِٱللَّهِ لَنُبَيِّتَنَّهُۥ وَأَهْلَهُۥ ثُمَّ لَنَقُولَنَّ لِوَلِيِّهِۦ مَا شَهِدْنَا مَهْلِكَ أَهْلِهِۦ وَإِنَّا لَصَٰدِقُونَ ﴿٤٩﴾ وَمَكَرُوا۟ مَكْرًا وَمَكَرْنَا مَكْرًا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٥٠﴾ فَٱنظُرْ كَيْفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكْرِهِمْ أَنَّا دَمَّرْنَٰهُمْ وَقَوْمَهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٥١﴾ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةًۢ بِمَا ظَلَمُوٓا۟ ۗ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَءَايَةً لِّقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٥٢﴾ ﴾ (النمل).

فالأقوام الذين مكروا بالأنبياء أهلكهم الله، وجعلهم عبرة، وبعد ختام الأنبياء، من يمكر بأهل الحق والمصلحين من الناس، ينال جزاء مكره، (وكل مكر سيئ يرجع على أهله) حتى بين عامة الأفراد! ﴿وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ (الأنعام)!

هذه الآيات تبعث الطمأنينة في قلوب المؤمنين، أن أعداء الله يمكرون بأهل الحق، والله عز وجل يمكر بأعداء الحق، وشتان بين مكر الأفراد، ومكر الله، وهذا المحور يثبته الله بقوله:

﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الأنفال).

﴿ٱسْتِكْبَارًا فِي ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ

يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ (فاطر).

فهو قانون ثابت نافذ إلى يوم القيامة، في تفسير المنار، للشيخ محمد رشيد رضا:

﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ إِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾﴾ (آل عمران).

﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ ﴾ أي ومكر أولئك الذين أحس عيسى منهم الكفر به، فحاولوا قتله وأبطل الله مكرهم فلم ينجحوا فيه، وعبَّر عن ذلك بالمكر على طريق المشاكلة، كذا قال الجمهور. ولكن ورد في سورة الأعراف إضافة المكر إلى الله – تعالى – من غير مقابلة، قال: ﴿أَفَأَمِنُوا۟ مَكْرَ ٱللَّهِ ۚ فَلَا يَأْمَنُ مَكْرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٩٩﴾﴾ (الأعراف)، والمكر في الأصل: التدبير الخفي المفضي بالمكور به إلى ما لا يحتسب، ولما كان الغالب أن يكون ذلك في السوء؛ لأن من يدبر للإنسان ما يسره وينفعه لا يكاد يحتاج إلى إخفاء تدبيره، غلب استعمال المكر في التدبير السيئ وإن كان في المكر الحسن والسيئ جميعاً قال تعالى: ﴿ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ ﴾، ووجه الحاجة إلى المكر الحسن أن من الناس من إذا علم بما يدبر له من الخير أفسد على الفاعل تدبيره فيحتاج مربيه أو متولي شؤونه إلى أن يحتال عليه ويمكر به ليوصله إلى ما لا يصح أن يعرفه قبل

الوصول؛ إذ يوجد في الماكرين الأشرار والأخيار والله خير الماكرين؛ فإن تدبيره الذي يخفى على عباده إنما يكون لإقامة سننه وإتمام حكمه، وكلها خير في نفسها، وإن قصر كثير من الناس في الاستفادة منها بجهلهم وسوء اختيارهم. فالذين كانوا يمكرون السيئات لمقاومة إصلاح الرسل حرصاً على رئاستهم وفسقهم وفسادهم لم يكونوا يشعرون بأن عاقبة مكرهم تحيق بهم لجهلهم بسنن الله تعالى في خلقه، وهم جديرون بهذا الجهل.

وأما قوله تعالى: ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ (الأنفال)، فهو بيان حالتهم العامة الدائمة في معاملته ﷺ هو ومن اتبعه من المؤمنين بعد التذكير بشيء ما كان منها في مكة، ولذلك لم يقل: (ويمكرون بك) أي: وهكذا دأبهم معك، ومع من اتبعك من المؤمنين، يمكرون بكم ويمكر الله لكم بهم كما فعل من قبل؛ إذ أحبط مكرهم، وأخرج رسوله من بينهم إلى حيث مهَّد له في دار الهجرة، ووطن السلطان والقوة، ﴿وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾؛ لأن مكره نصر للحق، وإعزاز لأهله، وخذل للباطل، وإذلال لأهله، وإقامة للسنن، وإتمام للحكم، ومن الدعاء المرفوع: «وامكر لي ولا تمكر علي» (صحيح ابن ماجه).

❋❋❋❋❋

سنة الله في المكر والماكرين (٢)

صاحبي دقيق في كل شيء، يدهشني -أحياناً- بدقة ملاحظاته، كنا في مكتبتي كعادتنا، بعد صلاة الجمعة، نقضي نصف ساعة تقريباً نتحاور معظم الأحيان حول قضايا شرعية، بدأ حواره:

- الكيد، والمكر، والخداع، كلمات وردت في كتاب الله، تتشابه، وتفترق، ليتك تبحث لنا عن معانيها.

أعجبتني ملاحظة صاحبي، جلست خلف الحاسوب، هذا الجهاز الذي سهل علينا حياتنا، أصبحنا ننجز في دقائق معدودة ما كنا نحتاج لأيام من البحث.

إليك يا (أبا عبدالله) ما وجدت في (المكر).

وردت كلمة (مكر) ومشتقاتها (٤٣) مرة في القرآن.

قال ابن فارس في معجم مقاييس اللغة: والعرب قد تطلق الكيد على المكر، والعرب قد يسمون المكر كيداً ووردت الكلمتان في كتاب الله فتبين الفرق بينهما، فالمكر إظهار الطيِّب وإبطان الخبيث، وهو الخديعة، وقد يكون حسناً أو سيئاً، وقد بيّن -جل وعلا- أن المكر السيئ لا يرجع ضرره إلا على فاعله، وهذه سنة إلهية لا تتبدل ولا تتعطل، بل نافذة على الجميع، وذلك في قوله تعالى:

﴿فَلَمَّا جَآءَهُمْ نَذِيرٌ مَّا زَادَهُمْ إِلَّا نُفُورًا ﴿٤٢﴾ ٱسْتِكْبَارًا فِى ٱلْأَرْضِ وَمَكْرَ ٱلسَّيِّئِ ۚ وَلَا

يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ ۚ فَهَلْ يَنظُرُونَ إِلَّا سُنَّتَ ٱلْأَوَّلِينَ ۚ فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَبْدِيلًا ۖ وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ ٱللَّهِ تَحْوِيلًا ﴿٤٣﴾﴾ (فاطر).

قال تعالى في بيان معنى المكر وجزائه: ﴿قَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَأَتَى ٱللَّهُ بُنْيَٰنَهُم مِّنَ ٱلْقَوَاعِدِ فَخَرَّ عَلَيْهِمُ ٱلسَّقْفُ مِن فَوْقِهِمْ وَأَتَىٰهُمُ ٱلْعَذَابُ مِنْ حَيْثُ لَا يَشْعُرُونَ ﴿٢٦﴾﴾ (النحل).

وهذا في قصد النمرود، فكان مكرهم بنيان الصرح ليصعد إلى السماء، فكان مكر الله بهم أن تركهم حتى تصاعدوا بالبناء، فأتى الله بنيانهم من القواعد، فهدمه عليهم، وهو أحد تفاسير هذه الآية. وذكر الله في سورة يوسف: ﴿ذَٰلِكَ مِنْ أَنۢبَآءِ ٱلْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ ۖ وَمَا كُنتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوٓا۟ أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ ﴿١٠٢﴾﴾ (يوسف).

وبيّن سبحانه في أول هذه السورة الكريمة أن الذي أجمعوا أمرهم عليه هو جعله في غيابة الجب، وأن مكرهم هو ما فعلوه بأبيهم يعقوب وأخيهم يوسف، وذلك في قوله: ﴿فَلَمَّا ذَهَبُوا۟ بِهِۦ وَأَجْمَعُوٓا۟ أَن يَجْعَلُوهُ فِى غَيَٰبَتِ ٱلْجُبِّ ۚ وَأَوْحَيْنَآ إِلَيْهِ لَتُنَبِّئَنَّهُم بِأَمْرِهِمْ هَٰذَا وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ﴿١٥﴾﴾.

وذكر -جل وعلا- (المكر) في آيات كثيرة مثل: مكر كفار مكة بقوله: ﴿وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ (الأنفال).

وذكر بعض مكر اليهود بقوله: ﴿رَبَّنَآ ءَامَنَّا بِمَآ أَنزَلْتَ وَٱتَّبَعْنَا ٱلرَّسُولَ فَٱكْتُبْنَا مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٥٣﴾ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾﴾ (آل عمران).

ومعنى: ﴿وَٱللَّهُ خَيۡرُ ٱلۡمَٰكِرِينَ ٥٤﴾ أي أقواهم عند إرادة مقابلة مكرهم بخذلانه إياهم. ويجوز أن يكون معنى خير الماكرين: أنّ الإملاء والاستدراج، الذي يقدّره للفجار والجبابرة والمنافقين، الشبيه بالمكر في أنّه حَسَن الظاهر سَيّئ العاقبة، هو خيرٌ محض لا يترتب عليه إلاّ الصلاح العام، وإن كان يؤذي شخصاً أو أشخاصاً، فهو من هذه الجهة مجرّدٌ عما في المكر من القُبح، وبيّن بعض مكر قوم صالح بقوله: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا وَمَكَرۡنَا مَكۡرٗا وَهُمۡ لَا يَشۡعُرُونَ ٥٠ فَٱنظُرۡ كَيۡفَ كَانَ عَٰقِبَةُ مَكۡرِهِمۡ أَنَّا دَمَّرۡنَٰهُمۡ وَقَوۡمَهُمۡ أَجۡمَعِينَ ٥١﴾ (النمل).

وذكر مكرَ قوم نوح بقوله: ﴿وَمَكَرُواْ مَكۡرٗا كُبَّارٗا ٢٢ وَقَالُواْ لَا تَذَرُنَّ ءَالِهَتَكُمۡ وَلَا تَذَرُنَّ وَدّٗا وَلَا سُوَاعٗا وَلَا يَغُوثَ وَيَعُوقَ وَنَسۡرٗا ٢٣﴾ (نوح).

وبيّن مكر رؤساء الكفار في قوله: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ بَلۡ مَكۡرُ ٱلَّيۡلِ وَٱلنَّهَارِ إِذۡ تَأۡمُرُونَنَآ أَن نَّكۡفُرَ بِٱللَّهِ وَنَجۡعَلَ لَهُۥٓ أَندَادٗاۚ﴾ (سبأ: ٣٣).

وقال عز وجل: ﴿أَفَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا بَيَٰتٗا وَهُمۡ نَآئِمُونَ ٩٧ أَوَأَمِنَ أَهۡلُ ٱلۡقُرَىٰٓ أَن يَأۡتِيَهُم بَأۡسُنَا ضُحٗى وَهُمۡ يَلۡعَبُونَ ٩٨ أَفَأَمِنُواْ مَكۡرَ ٱللَّهِۚ فَلَا يَأۡمَنُ مَكۡرَ ٱللَّهِ إِلَّا ٱلۡقَوۡمُ ٱلۡخَٰسِرُونَ ٩٩﴾ (الاعراف).

واعلم أن المراد بـ(أمن مكر الله) في هذه الآية هو الأمن الذي من نوع أمن أهل القرى المكذبين، الذي ابتُدئ الحديث عنه من قوله: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّبِيٍّ إِلَّآ أَخَذۡنَآ أَهۡلَهَا بِٱلۡبَأۡسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ لَعَلَّهُمۡ يَضَّرَّعُونَ ٩٤﴾ (الأعراف).

ثم قوله: ﴿أَفَأَمِنَ أَهْلُ ٱلْقُرَىٰٓ أَن يَأْتِيَهُم بَأْسُنَا بَيَٰتًا وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿٩٧﴾﴾ الآيات، وهو الأمن الناشئ عن تكذيب خبر الرسول ﷺ، وعن الغرور بأن دين الشرك هو الحق؛ فهو أمن ناشئ عن كفر، والمأمون منه هو وعيد الرسل إياهم وما أطلق عليه أنه مكر الله.

وقال تعالى في ذم الكافرين: ﴿وَإِذَآ أَذَقْنَا ٱلنَّاسَ رَحْمَةً مِّنۢ بَعْدِ ضَرَّآءَ مَسَّتْهُمْ إِذَا لَهُم مَّكْرٌ فِىٓ ءَايَاتِنَا ۚ قُلِ ٱللَّهُ أَسْرَعُ مَكْرًا ۚ إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ (يونس).

ومكرهم في آيات الله هو الاستهزاء بها وإنكارها ووصفها بما لا يليق، ولما كان الكلام متضمناً التعريض بإنذارهم، أمر الرسول ﷺ أن يعظهم بأن الله أسرع مكراً، أي منكم، فجعل مكر الله بهم أسرع من مكرهم بآيات الله، والمعنى أن الله أعجل مكراً بكم منكم بمكركم بآيات الله. وجملة: ﴿إِنَّ رُسُلَنَا يَكْتُبُونَ مَا تَمْكُرُونَ ﴿٢١﴾﴾ خطاب للمشركين مباشرة تهديداً من الله، وتأكيد الجملة لكون المخاطبين يعتقدون خلاف ذلك؛ إذ كانوا يحسبون أنهم يمكرون بالنبي ﷺ وأن مكرهم سيمرّ عليه دون أن يشعر به! فأعلمهم الله بأن الملائكة الموكلين بإحصاء الأعمال يكتبون ذلك، وعبّر بالمضارع في ﴿يكتبون﴾ و ﴿يمكرون﴾ للدلالة على التجدد والاستمرار، أي تتكرر كتابتهم كلما تكرر مكرهم، وقال تعالى: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلِلَّهِ ٱلْمَكْرُ جَمِيعًا ۖ يَعْلَمُ مَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ ۗ وَسَيَعْلَمُ ٱلْكُفَّٰرُ لِمَنْ عُقْبَى ٱلدَّارِ ﴿٤٢﴾﴾ (الرعد).

وفي هذا التشبيه رمز إلى أن عاقبتهم كعاقبة الأمم التي عرفوها؛ فنقص

أرض هؤلاء من أطرافها من مكر الله بهم جزاء مكرهم؛ فلذلك أعقب بقوله: ﴿وَقَدْ مَكَرَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ﴾ أي كما مكر هؤلاء. والمعنى: مكَرَ هؤلاء ومكر الذين من قبلهم، وحل العذاب بالذين من قبلهم؛ فمكر الله بهم وهو يمكر بهؤلاء مكراً عظيماً كما مكر بمن قبلهم، وقال تعالى:

﴿وَقَدْ مَكَرُواْ مَكْرَهُمْ وَعِندَ ٱللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِن كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ ٱلْجِبَالُ ﴿٤٦﴾﴾ (إبراهيم:٤٦).

أي وما كان مكرهم زائلة منه الجبال، وهو استخفاف بهم، أي ليس مكرهم بمتجاوز مكر أمثالهم، وما هو بالذي تزول منه الجبال، وفي هذا تعريض بأن الرسول ﷺ والمسلمين الذين يريد المشركون المكر بهم لا يزعزعهم مكرهم؛ لأنهم كالجبال الرواسي. انتهيت من قراءة ما جمعت عن (المكر)، قال صاحبي:

- وماذا عن (الكيد) ؟

- سوف أجهز لك بحثا آخر -إن شاء الله-.

❋❋❋❋❋

سنة الله في الكيد!

- من تفاصيل الأسماء والصفات التي تعلمتها من رحلتنا الأخيرة إلى المدينة المنورة.. أن هناك صفات لا تنسب إلى الله إلا مقيدة.. مثل قوله تعالى في المكر:

﴿ وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ ۚ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٣٠﴾ ﴾ (الأنفال).

وقوله عز وجل: ﴿ وَمَكَرُوا۟ وَمَكَرَ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ ﴿٥٤﴾ ﴾ (آل عمران).

وفي الخداع يقول تعالى: ﴿إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ ﴾ (النساء).

وفي النسيان يقول تعالى: ﴿ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۘ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ ﴾ (التوبة).

فهذه الصفات لا تنسب لله عز وجل إلا مقيّدة كما وردت في مواضعها.

- أحسنت يا (أبا عبد الرحمن).. لقد كانت رحلة ترويحية إيمانية علمية جميلة إلى المدينة وما حولها.. رغم ارتفاع درجة الحرارة.

وهذه المسألة تُشْكل على المبتدئين.. لذلك يجب التنبيه لها بين فترة

وأخرى... ضمن القاعدة العامة، أن (صفات الله عز وجل المطلقة كلها صفات كمال وجلال وعظمة...).

كنت وصاحبي في طريق عودتنا من المدينة المنورة.. انطلقنا بعد صلاة الفجر.. على أن نتوقف في الرياض وقت الظهيرة.. ثم نتابع إلى الكويت بعد صلاة العصر...

- وماذا عن صفة (الكيد)؟!

- ذُكر الكيد (٢٩) مرة في كتاب الله.. نسبه الله عز وجل إلى ذاته الجليلة.. ﴿وَأُمْلِي لَهُمْ ۚ إِنَّ كَيْدِي مَتِينٌ ﴿١٨٣﴾﴾ (الأعراف).

وفي مقابلة كيد الكافرين..

﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾ فَمَهِّلِ الْكَافِرِينَ أَمْهِلْهُمْ رُوَيْدًا ﴿١٧﴾﴾ (الطارق).

وإلى الشيطان: ﴿الَّذِينَ آمَنُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۖ وَالَّذِينَ كَفَرُوا يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ الطَّاغُوتِ فَقَاتِلُوا أَوْلِيَاءَ الشَّيْطَانِ ۖ إِنَّ كَيْدَ الشَّيْطَانِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾ (النساء).

وإلى الساحر: ﴿وَأَلْقِ مَا فِي يَمِينِكَ تَلْقَفْ مَا صَنَعُوا ۖ إِنَّمَا صَنَعُوا كَيْدُ سَاحِرٍ ۖ وَلَا يُفْلِحُ السَّاحِرُ حَيْثُ أَتَىٰ ﴿٦٩﴾﴾ (طه).

وإلى فرعون: ﴿وَمَا كَيْدُ فِرْعَوْنَ إِلَّا فِي تَبَابٍ ﴿٣٧﴾﴾ (غافر).

وإلى الكافرين: ﴿فَلَمَّا جَاءَهُم بِالْحَقِّ مِنْ عِندِنَا قَالُوا اقْتُلُوا أَبْنَاءَ الَّذِينَ

ءَامَنُواْ مَعَهُۥ وَٱسۡتَحۡيُواْ نِسَآءَهُمۡۚ وَمَا كَيۡدُ ٱلۡكَٰفِرِينَ إِلَّا فِي ضَلَٰلٖ ﴿٢٥﴾﴾ (غافر).

قاطعني صاحبي..

- دعنا نبحث عن معنى الكيد.. لغة..

(الكيد): إيقاع المكروه بالغير على وجه المكر والخديعة وهو مكروه في غالب أحواله ولا يكون ممدوحاً إلا إذا كان في باب المقابلة، ويأتي في اللغة على عدة معان: الحيلة - الخديعة - الحرب - المكر - الاستدراج - إرادة السوء بالغير - ويكون بعض ذلك محموداً مثل قوله تعالى: ﴿كَذَٰلِكَ كِدۡنَا لِيُوسُفَۖ﴾ (يوسف: ٧٦).. عن ابن عباس قال: كيد الله.. العذاب والنقمة.. والاستدراج من كيد الله بالكافرين..

- وما هي سنة الله في الكيد؟! إن كانت هناك سنة إلهية.

- نعم.. هي كذلك.. ومن الأمثلة التي تبين دقة معنى هذه الكلمة.. قول الله تعالى حكاية عن إبراهيم: ﴿وَتَٱللَّهِ لَأَكِيدَنَّ أَصۡنَٰمَكُم بَعۡدَ أَن تُوَلُّواْ مُدۡبِرِينَ ﴿٥٧﴾﴾ (الأنبياء).. فقد سمَّى إبراهيم عزمه على تكسير أصنافهم (كيداً).. لاعتقاد المخاطبين أن الأصنام تدفع عن نفسها فلا يستطيع أن يمسها بسوء إلا على سبيل الكيد.

وفي قوله تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا سَنَسۡتَدۡرِجُهُم مِّنۡ حَيۡثُ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿١٨٢﴾ وَأُمۡلِي لَهُمۡۚ إِنَّ كَيۡدِي مَتِينٞ ﴿١٨٣﴾﴾ (الأعراف).

فكيد الله بهؤلاء المكذبين.. هو الاستدراج والإملاء.. بما يفتح عليهم

من خيرات الدنيا فيظنون أنهم على حق.. ثم يأخذهم عز وجل فلا يفلتهم كما في الحديث.. عن أبي موسى الأشعري قال رسول الله ﷺ: «إن الله عز وجل يملي للظالم فإذا أخذه لم يفلته ثم قرأ: ﴿وَكَذَٰلِكَ أَخْذُ رَبِّكَ إِذَآ أَخَذَ ٱلْقُرَىٰ وَهِىَ ظَٰلِمَةٌ ۚ إِنَّ أَخْذَهُۥٓ أَلِيمٌ شَدِيدٌ ﴿١٠٢﴾﴾ (هود)» (صحيح مسلم).

وقوله تعالى: ﴿يَوْمَ لَا يُغْنِى عَنْهُمْ كَيْدُهُمْ شَيْـًٔا وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٤٦﴾﴾ (الطور).

بيّن جل وعلا في هذه الآية أن كيد الكفار لا يغني عنهم شيئاً في الآخرة، كقوله تعالى:

﴿هَٰذَا يَوْمُ ٱلْفَصْلِ ۖ جَمَعْنَٰكُمْ وَٱلْأَوَّلِينَ ﴿٣٨﴾ فَإِن كَانَ لَكُمْ كَيْدٌ فَكِيدُونِ ﴿٣٩﴾﴾ (المراسلات).

أي، فإن كان لكم كيدٌ اليوم كما كان لكم في الدنيا، أي كيدٌ بديني ورسولي فافعلوه، وبيّن أنه لا ينفعهم في الدنيا أيضاً، كقوله تعالى:

﴿أَمْ يُرِيدُونَ كَيْدًا ۖ فَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هُمُ ٱلْمَكِيدُونَ ﴿٤٢﴾﴾ (الطور).

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ يَكِيدُونَ كَيْدًا ﴿١٥﴾ وَأَكِيدُ كَيْدًا ﴿١٦﴾﴾ (الطارق)، إلى غير ذلك من الآيات.

- فالخلاصة أن كيد الخائنين مفضوح.. وكيد الشيطان ضعيف.. وكيد الكافرين لا قيمة له، وكيد السحرة لا خير فيه.. و(كيد الله) متين قوي.. وهو سبحانه يكيد لأنبيائه وأوليائه.. كيداً فيه الخير والفوز والفلاح..

ويكيد سبحانه بالكافرين.. فيبطل كيدهم.. ويذرهم في ضلالهم، ثم يأخذهم أخذ عزيز مقتدر.. فلا يفلتهم..

العاقبة للمتقين

- في تفسير قول الله تعالى:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ (الأنبياء).

سمعت في المذياع أن (الزبور) يعني الكتب المنزلة دون تحديد كالتوراة والإنجيل وصحف إبراهيم وزبور داوود، بمعنى الكتب السابقة للقرآن، وأن الذكر هو أم الكتاب، كما في قوله تعالى: ﴿يَمْحُو اللَّهُ مَا يَشَاءُ وَيُثْبِتُ وَعِنْدَهُ أُمُّ الْكِتَابِ ﴿٣٩﴾﴾ (الرعد)، وبصراحة استغربت هذا التفسير!

- نعم، هذا ما ورد في تفسير ابن عاشور، وكذلك تفسير ابن كثير، قال الأعمش: سألت سعيد بن جبير عن قوله تعالى: ﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ﴾، فقال الزبور: التوراة والإنجيل والقرآن، وقال مجاهد: الزبور: الكتاب، وقال سعيد بن جبير: الذكر: الذي في السماء، وكذلك في تفسير السعدي: (الزبور) الكتاب المزبور والمراد: الكتب المنزلة كالتوراة ونحوها، (من بعد الذكر)، أي كتبناه في الكتب المنزلة بعدما كتبناه في الكتاب السابق الذي هو اللوح المحفوظ.

- سبحان الله!

قالها صاحبي مستغرباً.

- بالفعل (كلما ازددت علماً، ازددت علماً بجهلي).

كنت وصاحبي في طريقنا لاستقبال ضيف من أندونيسيا، أستاذ في كلية العقيدة في جامعة شريف هداية الله الإسلامية في جاكرتا.

– وهل هذه سنة من سنن الله عز وجل؟

– نعم، وفي معنى (الأرض) ورد قولان: (الجنة)، أو (أرض العدو) في الدنيا، والثاني أقرب، لشواهده كما في قوله عز وجل:

﴿ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ ﴾ (الأحزاب).

في تفسير ابن كثير عن ابن عباس: «أخبر الله تعالى في التوراة والزبور وسابق علمه قبل أن تكون السماوات والأرض أن يورث أمة محمد ﷺ الأرض ويدخلهم الجنة، وهم الصالحون»، وورد أيضا: «يقول الله تعالى مخبراً عمَّا حتمه وقضاه (سنة الله) لعباده الصالحين من السعادة في الدنيا والآخرة ووراثة الأرض في الدنيا والآخرة كقوله تعالى:

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ (الأعراف).

وصلنا مواقف المركبات، مع هبوط الطائرة، قررنا الجلوس في أحد المقاهي ريثما ينهي صاحبنا إجراءات السفر، بعد أن تواصلنا معه بالهاتف.

– هناك آيات كثيرة تدل على هذا المعنى، أن الله يمكّن للمؤمنين والمتقين في الأرض، بعد أن يزيل الظالمين والطغاة، وإن استغرق الأمر زمناً، ولكنها (سنة الله) من ذلك قوله تعالى:

﴿ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مِنكُمۡ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ لَيَسۡتَخۡلِفَنَّهُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ كَمَا ٱسۡتَخۡلَفَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمۡ دِينَهُمُ ٱلَّذِي ٱرۡتَضَىٰ لَهُمۡ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنۢ بَعۡدِ خَوۡفِهِمۡ أَمۡنٗاۚ يَعۡبُدُونَنِي لَا يُشۡرِكُونَ بِي شَيۡـٔٗاۚ وَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡفَٰسِقُونَ ﴿٥٥﴾ ﴾ (النور).

﴿ وَقَالَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لِرُسُلِهِمۡ لَنُخۡرِجَنَّكُم مِّنۡ أَرۡضِنَآ أَوۡ لَتَعُودُنَّ فِي مِلَّتِنَاۖ فَأَوۡحَىٰٓ إِلَيۡهِمۡ رَبُّهُمۡ لَنُهۡلِكَنَّ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٣﴾ وَلَنُسۡكِنَنَّكُمُ ٱلۡأَرۡضَ مِنۢ بَعۡدِهِمۡۚ ذَٰلِكَ لِمَنۡ خَافَ مَقَامِي وَخَافَ وَعِيدِ ﴿١٤﴾ ﴾ (إبراهيم).

﴿ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَاۚ قَالَ عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (الأعراف:١٢٨-١٢٩).

وقد عُلم من قوله: ﴿وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾ ﴾ أن من يشاء الله أن يورثهم الأرض هم المتقون إذا كان في الناس متقون وغيرهم، وأن تمليك الأرض لغيرهم يكون لعارض ما وجاء بفعل الرجاء (عسى) دون الجزم تأدباً مع الله تعالى، وإقصاء للاتكال على أعمالهم ليزدادوا من التقوى والتعرض إلى رضا الله تعالى ونصره، فقوله: ﴿عَسَىٰ رَبُّكُمۡ أَن يُهۡلِكَ عَدُوَّكُمۡ ﴾ ناظر إلى قوله: ﴿إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ ﴾ (الأعراف:١٢٨)، وقوله: ﴿وَيَسۡتَخۡلِفَكُمۡ فِي ٱلۡأَرۡضِ ﴾ ناظر إلى قوله: ﴿فَيَنظُرَ كَيۡفَ تَعۡمَلُونَ ﴿١٢٩﴾ ﴾ (الأعراف).

والمراد بالاستخلاف: الاستخلاف في ملك الأرض، أي جعلهم أحراراً غالبين ومؤسسين ملكاً في الأرض المقدسة.

ومعنى ﴿فَيَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ ﴿١٢٩﴾﴾ التحذير من أن يعملوا ما لا يرضي الله تعالى، والتحريض على الاستكثار من الطاعة ليستحقوا وصف المتقين، تذكيراً لهم بأنه عليم بما يعملون.

كنا نراقب بوابة خروج المسافرين بانتظار صاحبنا، بعث رسالة بأنه لم ينته من إجراءات السفر بعد؛ حيث أشار إليه موظف الجوازات بالتوجه إلى غرفة الضابط المسؤول، للتأكد من بصمات الأصابع لوجود تشابه في الأسماء، تحدثنا مع الضابط عبر الهاتف، طمأنَنا أنه مجرد إجراء احترازي، وأنه انتهى من المطلوب، وتوجه لأخذ حقائبه.

تابعنا حديثنا.

دعني أقرأ لك ما ذكره الشيخ ابن عثيمين -رحمه الله تعالى-: ﴿وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٠﴾ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُوا۟ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّوا۟ عَلَىٰٓ أَدْبَٰرِكُمْ فَتَنقَلِبُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٢١﴾﴾ (المائدة).

و﴿ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ﴾ هي فلسطين؛ وإنما كتب الله أرض فلسطين لبني إسرائيل في عهد موسى؛ لأنهم هم عباد الله الصالحون؛ والله -سبحانه تعالى- يقول:

﴿وَلَقَدْ كَتَبْنَا فِي الزَّبُورِ مِنْ بَعْدِ الذِّكْرِ أَنَّ الْأَرْضَ يَرِثُهَا عِبَادِيَ الصَّالِحُونَ ﴿١٠٥﴾﴾ (الأنبياء).

وقال موسي -عليه السلام- لقومه: ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ اسْتَعِينُوا بِاللَّهِ وَاصْبِرُوا ۖ إِنَّ الْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ ۖ﴾ (الأعراف: ١٢٨).

ثم قال: ﴿وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٢٨﴾﴾.

إذاً المتقون هم الوارثون للأرض، لكنّ بني إسرائيل اليوم لا يستحقون هذه الأرض المقدسة؛ لأنهم ليسوا من عباد الله الصالحين؛ أما في وقت موسى فكانوا أولى بها من أهلها، وكانت مكتوبة لهم، وكانوا أحق بها، لكن لما جاء الإسلام الذي بُعث به النبي ﷺ صار أحق الناس بهذه الأرض المسلمون، لا العرب، ففلسطين ليست للعرب بوصفهم عرباً هم أهلها، بل إن أهلها المسلمون بوصفهم مسلمين، لا غير وبوصفهم عباداً لله عز وجل صالحين.

❋❋❋❋❋

سنة الله في الهداية والضلال (١)

- إن حجج المعرضين من الهداية.. متكررة على مر الأزمنة.. مما يدل على أنها من وحي الشيطان!! وقد بيَّنها الله تبارك وتعالى.. في كتابه، ولكن أكثر الناس لا يريدون الحق.. فهم معرضون..

يقول تعالى: ﴿سَيَقُولُ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَآ أَشۡرَكۡنَا وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ كَذَّبَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡ حَتَّىٰ ذَاقُواْ بَأۡسَنَاۗ قُلۡ هَلۡ عِندَكُم مِّنۡ عِلۡمٖ فَتُخۡرِجُوهُ لَنَآۖ إِن تَتَّبِعُونَ إِلَّا ٱلظَّنَّ وَإِنۡ أَنتُمۡ إِلَّا تَخۡرُصُونَ ١٤٨﴾ (الأنعام).

وقال تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلَّذِينَ أَشۡرَكُواْ لَوۡ شَآءَ ٱللَّهُ مَا عَبَدۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖ نَّحۡنُ وَلَآ ءَابَآؤُنَا وَلَا حَرَّمۡنَا مِن دُونِهِۦ مِن شَيۡءٖۚ كَذَٰلِكَ فَعَلَ ٱلَّذِينَ مِن قَبۡلِهِمۡۚ فَهَلۡ عَلَى ٱلرُّسُلِ إِلَّا ٱلۡبَلَٰغُ ٱلۡمُبِينُ ٣٥﴾ (النحل).

عقَّب صاحبي عجباً..

- تكاد تكون ذات الآية..

- نعم.. وهي ذات الحجة.. اليوم.. وغداً.. وإلى يوم القيامة.. لأن مصدرها واحد... الشيطان!! يُزيّن للمشركين سوءَ أعمالهم.. فيحسبون أن لهم حُجة وعُذر في شركهم!!

كنت وصاحبي في الطائرة إلى الرياض للمشاركة في مؤتمر علمي.. وللبحث عن فرصة شراء عقار صغير.. في نواحي الرياض الجديدة.

- وهل هناك (سُنة إلهية) وقانون رباني في هداية البشر..

– نعم.. وهذه السنة بيّنة لكل ذي بصيرة.. في حياة الأمم السابقة وفي حياتنا اليومية.. وأكثر من هذا وذاك في آيات الكتاب المبين!!

ورد لفظ (الهُدى) أكثر من ثلاثمئة مرة في كتاب الله.. ويدور معنى هذه الكلمة بين المعاني التالية: الرشد، النور، التوفيق، الكتاب، الرسول، الدليل، الدين.. ووردت كلمة (الضلال) بتصريفاتها.. مئة وتسعاً وثمانين مرة.. ويدور معناها.. حول رد الحق – العدول عن الاستقامة – الانحراف عن الصلاة – الضياع – نقيض الهدي.. الخذلان.. الانعدام والهلاك.

– أستمتعُ بشرحك لكلمات القرآن الكريم!!

– أنا مجرد ناقل لما كتبه الآخرون.. وقد خزنت كمّاً كبيراً من هذه الأمور في هاتفي..

– لنرجع إلى بيان (سُنَّة الله) في الهداية والضلال..

ومعنى ذلك.. (منهج الله عز وجل الثابت النافذ في إرشاد العباد وتوفيقهم إلى الطريق المستقيم أو تركهم لما اختاروه من طرق أخرى)..

جعل الله عز وجل للهداية أسباباً.. من أخذ بها نال الهداية.. ومن فرط فيها.. وأعرض عن الهداية.. كان في الضلال..

– هذه الأسباب هي.. العلم – الإيمان – اتباع النبي ﷺ – العمل بمقتضى العلم.. الدعاء.. ويحتاج العبد إلى طريق العودة إلى الله كلما وقع في معصية.. وهي التوبة!!

في تفسير السعدي.. عن قوله عز وجل:

﴿وَٱلَّذِينَ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا صُمٌّ وَبُكۡمٞ فِي ٱلظُّلُمَٰتِۗ مَن يَشَإِ ٱللَّهُ يُضۡلِلۡهُ وَمَن يَشَأۡ يَجۡعَلۡهُ عَلَىٰ صِرَٰطٖ مُّسۡتَقِيمٖ ٣٩﴾ (الأنعام).

هذا بيان لحال المكذبين بآيات الله المكذبين لرسله أنهم قد سدوا باب الهدى وفتحوا باب الردى وأنهم (صُمّ) عن سماع الحق و(بُكم) عن النطق به، (في الظلمات) منغمسون في ظلمات الجهل والكفر والظلم والعناد والمعاصي..

وعن قوله تعالى: ﴿وَنُقَلِّبُ أَفۡـِٔدَتَهُمۡ وَأَبۡصَٰرَهُمۡ كَمَا لَمۡ يُؤۡمِنُواْ بِهِۦٓ أَوَّلَ مَرَّةٖ وَنَذَرُهُمۡ فِي طُغۡيَٰنِهِمۡ يَعۡمَهُونَ ١١٠﴾ (الأنعام).

نعاقبهم إذ لم يؤمنوا أول مرة يأتيهم فيها الداعي وتقوم عليهم الحُجة بتقليب القلوب والحيلولة بينهم وبين الإيمان وعدم التوفيق لسلوك الصراط المستقيم، وهذا من عدل الله وحكمته بعباده فإنهم الذين جنوا على أنفسهم وفتح لهم الباب فلم يدخلوا وبيَّن لهم الطريق، فلم يسلكوا فبعد ذلك، إذا حرموا التوفيق كان مناسباً لأحوالهم.

- إن كلّ من يكون على ضلالة يوجِد لنفسه العذر.. مع أنه لو أنصف نفسه.. وتجرد عن الأهواء.. لعلم بينه وبين نفسه.. أن لا منطق لما اختاره.. من يعبد غير الله.. يبرر لنفسه ذلك أن هذا دين الآباء والأجداد.. ومن يقع في المعاصي.. يبرر لنفسه أن لو شاء الله لمنعه، ومن يقصر في الطاعات.. يبرر لنفسه أن لو شاء الله لهداه.. وهكذا يزين الشيطان لكل أمة عملهم!!

- دعني أورد لك شيئاً مما ورد في كتب التفسير لبعض هذه الآيات..

أولًا: الإضلال والهداية مقتضى حكمة الله ورحمته

فالإضلال والهداية من الله سبحانه لعباده هي من مقتضى علمه سبحانه وحكمته وفضله ورحمته؛ فالله عز وجل يهدي مَن يشاء بفضله ورحمته وعلمه وحكمته، ويُضل مَن يشاء بعدله وعلمه وحكمته، وليس لمجرد المشيئة المجردة من العلم والحكمة ومن نهج نهجهم فالله عز وجل يهدي من عَلِم منه سبحانه حبّه للهداية وخضوعه وإنابته للحق إذا تبيّن له، ويعينه ويوفقه لذلك، بينما من أعرض عنه سبحانه وعن الهداية التي أرسَلَ من أجلها الرسل، وأنزل الكتب واستكبر على الحق؛ فإن الله عز وجل يخذله وَيكِله إلى نفسه.

ومَن تخلّى الله عز وجل عنه، ولم يمده بعونه هَلَكَ وضَلَّ، وطبع على قلبه وسمْعِه فمن يهديه من بعد الله..؟!

فالهداية والإضلال التي هي من فعل الله عز وجل تقع جزاء لفعل العبد باختياره وسلوكه طريق الهدى وقبوله له، أو اختيار طريق الضلال والإصرار عليه.

ثانيًا: الهداية والإضلال بين الحمد والعدل

إن (سنة الله) عز وجل في الهداية والإضلال هي من مقتضى أسمائه الحسنى وصفاته العلى، فَيَمُنُّ على مَن أقبل عليه وأناب إليه بفضله ورحمته وعلمه وحكمته، ويضلّ من أعرض عنه بعلمه وحكمته وعزته وعدله، وله سبحانه الحمد التام على ذلك كله.

والله تعالى حَكَم عدل لا يظلم أحدًا من عباده، ولا يضل إلّا من علم منه سبحانه تكبره وإعراضه، والله عز وجل له الحمد التام في أسمائه وصفاته وأفعاله؛ حيث لا يضع الهداية إلا في قلب مَن يستحقها، ولا الضلال إلا في قلب مَن يستحقه.

ثالثًا: بين قدر الله النافذ والثقة في عدله

إن قدر الله عز وجل وحكمه النافذ في خلقه هو سِرَّ الله عز وجل، ولا قدرة للعقول على إدراك هذا السر؛ لأن كيفيات أفعال الله عز وجل فوق مُدْرَكات العقول، قال الله عز وجل: ﴿وَلَا يُحِيطُونَ بِهِۦ عِلْمًا ﴿١١٠﴾﴾ (طه).

لذا؛ فالمطلوب من المسلم أن يهتم وينهض بأداء ما كلّفه الله عز وجل به من الأوامر والنواهي، وأن يكُفّ ولا ينشغل ولا يبحث في شيء وراء الغاية التي خلق من أجلها، ولا يبحث في شيء وراء ذلك من أمر الغيب المحجوب عن إدراكه المحدود.

وأن يوقن بأن الله عز وجل ما كان ليكلفه بأمر يعلم أن لا طاقة له به أو أنه ممنوع بمانع قهري عنه.

وما كان الله عز وجل لينهاه عن شيء يعلم أن لا طاقة بالامتناع عنه أو أنه مدفوع بدافع قهري لارتكابه، قال سبحانه: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾ (البقرة: ٢٨٦).

من ثمرات العلم بسنة الله في الهداية والإضلال:

يترتب على معرفة هذه السُنة عدة فوائد وثمرات؛ منها:

الثمرة الأولى: التضرع في طلب الهداية

سؤال الله عز وجل والتضرع بين يديه في طلب الهداية بنوعيها: هداية الدلالة والإرشاد إلى الحق، وهداية التوفيق باتباع الحق والانقياد له، وسؤاله مع ذلك الثبات على الحق والهُدى والموت عليه؛ لأنه ليس كل من رُزق الهداية يموت عليها، والتوفيق للحق واتباعه. والموت والثبات عليه حتى الممات لا يوفّق إليه إلا مالك القلوب ومصرفها علام الغيوب.

ولقد كان النبي، ﷺ، يُكثر في دعائه من قول: «**يا مقلب القلوب ثبت قلبي على دينك**» فقالت عائشة رضي الله عنها: يا رسول الله دعوة كثيرًا ما تدعو بها قال: «**إنه ليس من عبد إلا وقلبه بين إصبعين من أصابع الله، فإذا شاء أن يقيمه أقامه، وإذا شاء أن يزيغه أزاغه**». (صحيح الترمذي).

والله عز وجل لا يُضل من استهداه، ولا يُخيّب من رجاه، ولا يخذل من أناب إليه بصدق وإخلاص؛ لأن الله عز وجل إذا علم من عبده الصدق في طلب الهداية والإذعان للحق إذا تبين له وفّقه وسدّده وأعانه، وإذا علم منه الإعراض والإباء والاستكبار أعرض عنه وخذله ووكله إلى نفسه وشيطانه.

الثمرة الثانية: الحذر من رد الحق

إذا علم العبد أن سنة الله عز وجل في هداية عباده إلى الحق أو الإضلال عنه تنفُذ في عباده، حسب ما يعلمه سبحانه من قلوبهم من محبة بعضهم للحق والانقياد له، أو تَكبُّر بعضهم على الحق ورده؛ إذا علم العبد ذلك،

فإن هذا الشعور يجعله على حذر من رد الحق، إذا بان له، لأن الله عز وجل يعاقب مَن تكبر على الحق بصرْفه عنه، وترْك إعانته.

ومن تخلى الله عز وجل عنه ولم يُعنْه هلك وضل ضلالًا مبينًا.

وفي ذلك يقول ابن القيم رحمه الله تعالى:

حذار حذار من أمرين لهما عواقب سوء:

أحدهما: ردُّ الحق لمخالفته هواك؛ فإنك تعاقَب بتقليب القلب، وردِّ ما يَرِدُ عليك من الحق رأسًا، ولا تقبله إلا إذا برز في قالب هواك.

والثاني: التهاون بالأمر إذا حضر وقته؛ فإنك إن تهاونت به ثبطك الله وأقعدك عن مراضيه وأوامره؛ عقوبة لك.

فمن سلِم من هاتين الآفتين والبليّتين العظيمتين؛ فَلْيَهْنِهِ السلامة. (بدائع الفوائد)

❋❋❋❋❋

سنة الله في الهداية والضلال (٢)

قبل عام، دعاني زميلي في العمل - من تونس- ليريني الشقة الجديدة التي استأجرها، كان مسروراً بها؛ لكبر مساحتها وإطلالتها الجميلة على البحر، وتوفر الخدمات حولها، كان يجهزها قبل أن تأتي زوجته وابنته إلى الكويت للمرة الأولى. رافقني بعد صلاة ظهر الثلاثاء الماضي إلى مكتبي، بدأت عليه علامات الضيق، وعدم الارتياح.

- أفكر أن أغيّر السكن.

استغربت رغبته.

- شقتك جميلة، وموقعها مميز، وإطلالتها فاخرة.

- نعم كل ذلك صحيح، ولكن جيراننا -مع الأسف-، مجموعة من الشباب الذين يسهرون كل أسبوع تقريباً، يوم الخميس ليلة الجمعة إلى ساعات الصباح الأولى، ونحن لا ننام تلك الليلة.

- هل تحدثت معهم؟

- في البداية شكوت الأمر إلى (حارس المبنى)، أظهر اهتماماً، ولكن يبدو أنهم كسبوه لناحيتهم بالمال!

وتحدثت إلى مالك الشقة، وعدني خيراً ولم يتغير شيء، طرقت الباب ذات مرة عليهم، بعد صلاة العصر، كان واحد منهم فقط في الشقة، تعرفت عليه، تحدثت معه بلطف.

- طلب مني أن نتحدث في بهو مدخل المبنى.

– نحن خمسة من الشباب اثنان منا متزوجان، بعضنا يعمل في القطاع النفطي وبعضنا في القطاع الأمني، عَمَلُنا فيه نظام النوبات، نرتب أمورنا ونرفه عن أنفسنا يوم الخميس، ليلة الجمعة.

– ألا تصلون الجمعة؟!

– في أغلب الأحيان، لا؛ لأننا نكون نياماً و«رفع القلم عن النائم حتى يصحو»!

– هذا فهم خطأ للحديث؛ وذلك أن «**من ترك ثلاث جمع تهاوناً بها طبع الله على قلبه**» (صحيح أبي داود).

– عسى الله أن يهدينا، ونحافظ على الجمعة.

أغاظتني ردوده الجاهزة، وعدم مبالاته.

– وماذا فعلت معه؟

تابعت حديثي معه مع علمي أنني لن أصل إلى شيء.

– (الهداية) نَعم من الله، ولكن لها أسبابها، الله –سبحانه وتعالى– وضع شروطاً للهداية، من استوفى هذه الشروط نال الهداية، ومن لم يأخذ بها تركه الله لما اختاره.

قاطعني.

– كم آية في القرآن يقول الله فيها: ﴿**فَيُضِلُّ اللَّهُ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي مَن يَشَاءُ**﴾.

- نعم آيات كثيرة، ولكن حاشا لله أن يظلم أحداً.

وإلا، لماذا يثيب من يهدي، ويعذب من يضلّ، إذا لم يكن للعبد دور في الهداية والضلال؟ لا ينبغي أن نصف الله بهذه الطريقة، الله -سبحانه وتعالى- يهدي من أراد الهداية وبذل أسبابها، ويضل من ترك أسباب الهداية ولم يردها، فيتركه الله عز وجل لما اختار.

يقول -تبارك وتعالى-: ﴿أَفَمَن زُيِّنَ لَهُۥ سُوٓءُ عَمَلِهِۦ فَرَءَاهُ حَسَنًا ۖ فَإِنَّ ٱللَّهَ يُضِلُّ مَن يَشَآءُ وَيَهۡدِي مَن يَشَآءُ ۖ فَلَا تَذۡهَبۡ نَفۡسُكَ عَلَيۡهِمۡ حَسَرَٰتٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِمَا يَصۡنَعُونَ ٨﴾ (فاطر:٨)، بمعنى: الذي يريد العمل السيئ ويمارسه ويرى أنه حسن يتركه الله لما أراد.

وكذلك يقول الله عز وجل: ﴿أَلَا لِلَّهِ ٱلدِّينُ ٱلۡخَالِصُ ۚ وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مِن دُونِهِۦٓ أَوۡلِيَآءَ مَا نَعۡبُدُهُمۡ إِلَّا لِيُقَرِّبُونَآ إِلَى ٱللَّهِ زُلۡفَىٰٓ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ بَيۡنَهُمۡ فِي مَا هُمۡ فِيهِ يَخۡتَلِفُونَ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ كَٰذِبٞ كَفَّارٞ ٣﴾ (الزمر)، هو الذي اختار الكفر فتركه الله لاختياره وإصراره.

ويقول تعالى: ﴿وَقَالَ رَجُلٞ مُّؤۡمِنٞ مِّنۡ ءَالِ فِرۡعَوۡنَ يَكۡتُمُ إِيمَٰنَهُۥٓ أَتَقۡتُلُونَ رَجُلًا أَن يَقُولَ رَبِّيَ ٱللَّهُ وَقَدۡ جَآءَكُم بِٱلۡبَيِّنَٰتِ مِن رَّبِّكُمۡ ۖ وَإِن يَكُ كَٰذِبٗا فَعَلَيۡهِ كَذِبُهُۥ ۖ وَإِن يَكُ صَادِقٗا يُصِبۡكُم بَعۡضُ ٱلَّذِي يَعِدُكُمۡ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي مَنۡ هُوَ مُسۡرِفٞ كَذَّابٞ ٢٨﴾ (غافر).

فالذي يختار طريق الضلال، ويسير فيه ويعرض عن طريقة الهداية، يتركه الله، وهذا معنى (يضله الله)، أما من أحب الهداية، وأرادها صادقا،

وبذل أسبابها، فإن الله يهديه ويوفقه ويحفظه، ﴿وَٱلَّذِينَ ٱهْتَدَوْا۟ زَادَهُمْ هُدًى وَءَاتَىٰهُمْ تَقْوَىٰهُمْ ﴿١٧﴾﴾ (محمد).

يقول تعالى: ﴿يَهْدِى بِهِ ٱللَّهُ مَنِ ٱتَّبَعَ رِضْوَٰنَهُۥ سُبُلَ ٱلسَّلَٰمِ وَيُخْرِجُهُم مِّنَ ٱلظُّلُمَٰتِ إِلَى ٱلنُّورِ بِإِذْنِهِۦ وَيَهْدِيهِمْ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٦﴾﴾ (المائدة).

ويقول سبحانه: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُم بِإِيمَٰنِهِمْ ۖ تَجْرِى مِن تَحْتِهِمُ ٱلْأَنْهَٰرُ فِى جَنَّٰتِ ٱلنَّعِيمِ ﴿٩﴾﴾ (يونس). ويقول عز وجل: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱعْتَصَمُوا۟ بِهِۦ فَسَيُدْخِلُهُمْ فِى رَحْمَةٍ مِّنْهُ وَفَضْلٍ وَيَهْدِيهِمْ إِلَيْهِ صِرَٰطًا مُّسْتَقِيمًا ﴿١٧٥﴾﴾ (النساء).

- أظن أن الإنسان يعلم في أعماق نفسه، أنه إذا أراد الهداية يصل إليها، ولكن من اعتاد الذنوب والبعد عن طاعة الله، تصعب عليه الرجعة، ويزين له الشيطان ما هو فيه، ويلقي في قلبه، أن الهداية بيد الله، لو أراد الله له الهداية ما استطاع أحد أن يضله، فيبقى على ما هو عليه.

قاطعت صاحبي.

- وإلى ماذا انتهى حوارك مع جارك؟

- تبيَّنَ لي أنه يعلم أن ما يفعله خطأ، وأنه يعصي الله بترك الواجبات، والوقوع في المحرمات، يعلم كل ذلك، وأنه لو أراد أن يتوقف فإنه يستطيع ذلك، ولكنه يريد أن يتمتع بحياته، إلى حين، ثم يرجع إلى الله. - وما الضمان أنه سيبقى حتى تكون له فرصة الرجوع. سألته، عن ذلك، قال إذا كان ذلك، فإنه أمر الله لا يُردّ!

- وكيف ختمت حديثك معه.

- ختمته، بطلب مراعاة الجيرة، وحسن التعامل مع الجار، ولكن عقدت العزم على ترك المكان كما في الحديث.

«**اللهم إني أعوذ بك من جار السوء في دار المقامة؛ فإن جار البادية يتحول**» (صحيح الترغيب).

❋❋❋❋❋

نولّه ما تولَّى!

– كلما أظهر العبد افتقاره بصدق إلى الله كان دعاؤه أرجى بالإجابة..

– ماذا تعني بهذه العبارة؟!

كنت وابني معاذ بانتظار أولَّ ولدٍ ذكر له... زوجته أدخلت منذ صلاة الفجر.. وتجاوزت الساعة العاشرة صباحاً... فكان يدعو الله قلقاً.. أن ييسر الأمر.

– في الحديث عن أبي بكرة رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال: «**دعوات المكروب.. اللهم رحمتك أرجو فلا تكلني إلى نفسي طرفة عين أصلح لي شأني كله لا إله إلا أنت**» (صحيح الجامع).

فالعبد يذكّر نفسه دائماً.. أن يتولَّى اللهُ شأنه كله.. هدايته.. عافيته.. رزقه.. ثباته على الحق.. صلاح ذريته.. طيب عيشه.. حُسن خاتمته.. فيحقق قوله «لا حول ولا قوة إلا بالله».. فلا يكون في قلبه ملجأ غير الله عز وجل..

– هذه حقيقة يغفل عنها الإنسان معظم الوقت.. ويتذكرها بعضهم في المصيبة والكرب..

– وهنا تتفاوت مواقف الناس حسب درجات إيمانهم... ومن أعظم ما يجب أن يوكل العبد إلى الله الهداية والثبات على الحق!!!

يقول عز وجل: ﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعۡدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلۡهُدَىٰ وَيَتَّبِعۡ غَيۡرَ سَبِيلِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصۡلِهِۦ جَهَنَّمَۖ وَسَآءَتۡ مَصِيرًا ١١٥﴾ (النساء).

هذه الآية فيها تحذير شديد أن يبحث المرء عن الهداية في غير الكتاب والسنة بفهم الصحابة رضي الله عنهم.. ذلك أن من يختار غير هذه السبيل.. يتركه الله عز وجل لاختياره!! ومن يتخلَّ الله عنه.. يهلَك.

كنت أحاول أن أصرف ذهن (معاذ) عمَّا كان يشغله..

- وهذا معنى قوله تعالى: ﴿**ويضل من يشاء**﴾؟.

- نعم.. فالله عز وجل يهدي من سلك سبيل الهداية.. ومن أعرض عنها.. يتركه لاختياره.. وهذا هو الضلال والهلاك.. فالعبد هو السبب.. يقول تعالى:

﴿فَلَمَّا زَاغُوٓا۟ أَزَاغَ ٱللَّهُ قُلُوبَهُمْ ۚ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٥﴾﴾ (الصف).

قال صاحب المنار: والذي أريد توجيه الأذهان إلى فهمه هو أن هذه الجملة مبيِّنة لسنة الله تعالى في عمل الإنسان ومقدار ما أُعطيه من الإرادة والاستقلال والعمل بالاختيار فالوجهة التي يتولاها في حياته.. والغاية التي يقصدها من عمله يوليه الله إياها.. ويوجهه إليها، أي: يكون بحسب سُنَّة الله تعالى والياً لها سائراً على طريقها فلا يجد من القدرة الإلهية ما يجبره على ترك اختياره لنفسه ولو شاء الله - سبحانه - لهدى الناس جميعاً بخلقهم على حالة واحدة في الطاعة كالملائكة... ولكنه - سبحانه - شاء أن يخلقهم على ما نراهم عليه من تفاوت في العمل.. كل فرد بحسب ما يرى أنه خير له وأنفع في عاجله أو آجله أو فيهما جميعاً...

سألني..

- ماذا تعني بـ (صاحب المنار)؟!

- هو الشيخ (محمد رشيد رضا).. ولد في قرية القلمون.. (لبنان) عام (١٨٦٥م).. وهي قرية تبعد عن طرابلس الشام خمسة كيلو مترات، وانتقل إلى مصر عام (١٨٩٨م).. واستقر في القاهرة، حيث أصدر مجلة المنار.. وتوفي عام (١٩٣٥م)... ويعتبر من علماء السلف المعاصرين.. لنرجع إلى حديثنا... قاطعني:

- اسمح لي أن أسأل الممرضة عن وضع (لولوة)...

لم ينتظر ردة فعلي... غاب دقيقتين...

- تقول إن الدكتور معها.. وتبدأ عملية الولادة القيصرية...

- ستكون الأمور بخير.. بإذن الله.. فاستعن بالله، وأوكل الأمر إليه..

- ونِعم بالله...

تابعت حديثي.. محاولاً إلهاءه...

- فالعبد الذي يختار أن يتولى المنهج العقلي والمنطق... يتركه الله لمنهجه... وهذا لا شك أنه على ضلال وهو يحسب أن منهجه (أرقى) منهج للبشر...

﴿ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَعْمَٰلَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ ٱلسَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ ﴿٢٤﴾ ﴾ (النمل).

هذه الآية نزلت في وصف قوم ملكة سبأ... كانوا يعبدون الشمس!!

ويحسبون أنهم مهتدون... وكذلك من كانوا يعبدون الأصنام... وكذلك من يتبعون الأبـراج.. ويظنون أن الأبـراج تؤثر على شخصية الإنسان.. وطبعه.. وأخلاقه.. وتوافقه مع زوجه... ونجاحه في عمله... هؤلاء تولوا الأبراج والنجوم... فتركهم الله لما اختاروا فضلوا عن السبيل...

قاطعني...

- ولكني أعرف كثيراً ممن يطلعون على هذه الأمور من باب التسلية والفضول.

- وهذا باب خطر.. وسبيل يزينه الشيطان أقله يخدش التوحيد... وربما نقضه..

لم يخفِ استغرابه من حدة إجابتي..

- اسمع هذا الحديث: «عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: قال رسول الله ﷺ: «**من اقتبس علماً من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد**» (صحيح أبي داوود).

وفي صحيح مسلم عن بعض أزواج النبي ﷺ قال: «**من أتى عرافاً فسأله عن شيء لم تقبل له صلاة أربعين يوماً**»، هذا إذا سأله دون أن يصدقه!!! أما إذا صدقه.. فقد قال النبي ﷺ عنه: «**من أتى كاهناً أو عرافاً فصدقه بما يقول فقد كفر بما أنزل على محمد**» (السلسلة الصحيحة).

قال ابن تيمية - رحمه الله - «والمنجم والعراف يدخل في اسم الكاهن».. وعن عمر رضي الله عنه قال: «**تعلموا من النجوم ما تعرفون**

به القبلة والطريق، ثم أمسكوا»... من تولى الأبراج.. تركه الله لهذ العلم.. فلم يوفق.. ومن تولى علم الطاقة تركه الله لهذا العلم... فلم يوفق... ومن تولى علم المنطق والفلسفة... تركه الله لهذا العلم فلم يوفق.. الهداية والخير والنجاح والفلاح... أن يتولى المرء كتاب الله.. وسنة نبيه ﷺ بفهم الصحابة.

❋❋❋❋❋

سنة الله في الرزق (١)

- أطلعني صاحبي على مقطع مصور على هاتفه الذكي لرجل، يزعم أن من دعا بدعاء معين، وقرأ سورة الواقعة كل ليلة وسورة الصافات كل جمعة، وأخذ من شاربه وأظافره كل جمعة، وصلى صلاة الرزق، رزقه الله حتماً، دون شك، وهذا مجرب!

- هؤلاء لا يذكرون أدلة من كتاب أو سنة على ما يزعمون، وإنما يلبِّسون على العامة بقولهم، و(هذا مجرب)، أما ما ورد عند أهل العلم المتبعين لكتاب الله عز وجل وسنة الرسول ﷺ في باب (سنة الله في الرزق)، فإليك مختصره.

كنت وصاحبي في طريقنا إلى المقبرة لأداء صلاة العشاء وحضور جنازة والد أحد المصلين، وعادة أهل الكويت أن يكون الدفن ليلاً، بعد المغرب والعشاء في أشهر الصيف شديدة الحرارة (يونيو ويوليو وأغسطس).

- أما سنن الله في الرزق فلها أركان، الركن الأول أن الله -تبارك وتعالى- خلق الخلق وتكفل برزقهم جميعاً، فهو ربهم سبحانه كما قال في سورة العنكبوت:

﴿ وَكَأَيِّن مِّن دَآبَّةٍ لَّا تَحۡمِلُ رِزۡقَهَا ٱللَّهُ يَرۡزُقُهَا وَإِيَّاكُمۡۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ٦٠ ﴾ (العنكبوت).

وهذا الرزق مكتوب مقدر قبل خلق البشر، بل قبل خلق السماوات والأرض!

ثم تعاد كتابته والإنسان في بطن أمه، كما في حديث عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - قال: حدثنا رسول الله ﷺ قال: «**إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوماً، ثم يكون علقة مثل ذلك، ثم يكون مضغة مثل ذلك، ثم يبعث ملكاً فيؤمر بأربع كلمات، ويقال له: اكتب عمله ورزقه وأجله وشقي أو سعيد، ثم ينفخ فيه الروح...**» (متفق عليه)، هذا هو الركن الأول والركن الثاني، لابد من السعي للحصول على الرزق، لا رزق دون سعي، كما قال تعالى:

﴿هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾﴾ (الملك).

وحديث النبي ﷺ عن عمر بن الخطاب - رضي الله عنه -: «**لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله، لرزقكم كما يرزق الطير، تغدو خماصاً وتروح بطاناً**» (صحيح الترمذي)، السعي مع التوكل على الله، والركن الثالث اليقين بأن الرزق الذي كتبه الله لك سيصلك، بل رزقك يسعى إليك ويطلبك أكثر من أجلك.

استغرب صاحبي مقولتي!

- هل هناك حديث بهذا، أعني أن الرزق يطلب الإنسان مثل أجله؟

- بل أشد من أجله.

عن أبي الدرداء - رضي الله عنه - أ ن رسول الله ﷺ قال: «**إن الرزق ليطلب العبد كما يطلبه أجله**»، وفي رواية: «**إن الرزق ليطلب العبد أكثر مما يطلبه أجله**» (صحيح الترغيب).

– سبحانه الله، أول مرة أسمع هذه الرواية الصحيحة.

اقتربنا من مدخل المقبرة، توقفت حركة السير؛ لاكتظاظ المركبات عند المدخل، يبدو أنه كانت أكثر من جنازة، عند المدخل سألنا رجلَ الأمن عند البوابة، أخبرنا بأن عدد الجنائز أربع.

استغفرنا لهم، ودعونا لهم ولموتى المسلمين.

بقينا في مركبتنا بانتظار اقتراب موعد الأذان، تابعنا حديثنا:

– وفي صحيح الجامع عن أبي أمامة – رضي الله عنه – قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن روح القدس نفث في رَوعي أن نفساً لن تموت حتى تستكمل أجلها وتستوعب رزقها؛ فاتقوا الله وأجمِلوا في الطلب، ولا يحملنّ أحدكم استبطاء الرزق أن يطلبه بمعصية الله؛ فإن الله تعالى لا ينال ما عنده إلا بطاعته**».

قاطعني:

– وماذا عن الكفار والملحدين الذين هم أغنى أهل الأرض؟

– توقعتك تسأل هذا السؤال، وكذلك كانوا في عهد النبي ﷺ، كما أخبر عن كنوز كسرى، وثروات الروم، مما أخبر الله عز وجل أن ثروات الدنيا ليست حكراً على المسلمين الصالحين المتقين، بل يعطي الله المؤمن والكافر: ﴿كُلًّا نُّمِدُّ هَٰٓؤُلَآءِ وَهَٰٓؤُلَآءِ مِنْ عَطَآءِ رَبِّكَ ۚ وَمَا كَانَ عَطَآءُ رَبِّكَ مَحْظُورًا ﴿٢٠﴾﴾ (الإسراء).

المؤمن يكسب بالحلال وينفقه في حلال فيزداد قربة إلى الله، والكافر يُعطى نعيمه في الدنيا، وليس له في الآخرة من خلاق، من اجتهد نال من عطاء الله، ما شاء الله:

﴿مَّن كَانَ يُرِيدُ ٱلْعَاجِلَةَ عَجَّلْنَا لَهُۥ فِيهَا مَا نَشَآءُ لِمَن نُّرِيدُ ثُمَّ جَعَلْنَا لَهُۥ جَهَنَّمَ يَصْلَىٰهَا مَذْمُومًا مَّدْحُورًا ﴿١٨﴾﴾ (الإسراء).

الله عز وجل، ينزل الرزق على عباده بعلمه وحكمته ولطفه وكرمه، فهو القائل في محكم تنزيله:

﴿ٱللَّهُ لَطِيفٌۢ بِعِبَادِهِۦ يَرْزُقُ مَن يَشَآءُ ۖ وَهُوَ ٱلْقَوِىُّ ٱلْعَزِيزُ ﴿١٩﴾﴾ (الشورى).

على العبد أن يسعى، وبعد ذلك يرضى بقلب يملؤه الإيمان واليقين بالله عز وجل، بأن الله لم يظلمه ولم يحرمه ما يستحق، بل أعطاه ورزَقه وهو أعلم بحاله: ﴿إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾﴾ (الإسراء).

فلا اعتراض على بسط الرزق للآخرين وتقديره عليك.

– هل هذا يتوافق مع قوله تعالى: ﴿إِنَّ رَبَّكَ لَبِٱلْمِرْصَادِ ﴿١٤﴾ فَأَمَّا ٱلْإِنسَٰنُ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ رَبُّهُۥ فَأَكْرَمَهُۥ وَنَعَّمَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَكْرَمَنِ ﴿١٥﴾ وَأَمَّآ إِذَا مَا ٱبْتَلَىٰهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُۥ فَيَقُولُ رَبِّىٓ أَهَٰنَنِ ﴿١٦﴾﴾ (الفجر).

– نعم، وهذا في ذم هذا النوع من البشر الذين «يساومون» الله عز وجل، فهو سبحانه ﴿لَا يُسْـَٔلُ عَمَّا يَفْعَلُ وَهُمْ يُسْـَٔلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الأنبياء). ترجلنا من المركبة، قبل الأذان بخمس دقائق، لنأخذ مكاننا في الصف الأول، دخلنا

المسجد فإذا الصفوف الثلاثة الأولى قد امتلأت! همست لصاحبي، دعني أختم الموضوع بهذا الحديث:

- على العبد ألا ينظر إلى ما في يد الآخرين فيدخل قلبه الحسد بل يتجه إلى الله عز وجل ويسأله الرزق مباشرة، ويعلم أن الرزق ليس بكثرة المال وحسب، بل العافية رزق، والزوجة الصالحة رزق، والولد البار رزق، بل السمع والبصر والعقل رزق عظيم من الله، فالعبد المؤمن يشكر الله دائماً على نعمه، التي ربما لا يشعر بها؛ لأنه اعتادها:

﴿وَهُوَ ٱلَّذِىٓ أَنشَأَ لَكُمُ ٱلسَّمْعَ وَٱلْأَبْصَٰرَ وَٱلْأَفْـِٔدَةَ ۚ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿٧٨﴾﴾ (المؤمنون).

❋❋❋❋❋

سنة الله في الرزق (٢)

- في طريق عودتي إلى المنزل، فاجأتني حفرة لم أستطع تفاديها؛ مما أدى إلى إتلاف إطار مركبتي الخلفي، توقفت على جانب الطريق السريع، حمدت الله أن الأمر مرَّ بسلام دون حادث مروري.

بحثت في هاتفي عن أرقام خدمة الطريق، الرقم الأول كان مفصولاً عن الخدمة، والثاني لا يرد، والثالث خطأ، شاء الله أن تمر بي الشاحنة التي تنقل المركبات المتعطلة، ونسميها في الكويت (سطحة)، صاحبها يقودها دون تخطيط مسبق، يتجول إلى أن يرزقه الله بمركبة متعطلة على قارعة الطريق.

بعد أن استوت مركبتي على (السطحة)، وأخذت مكاني بجانب السائق، فتحت معه الحوار:

- اتصلت قبل أن تصل بخمس جهات، لم أوفق معها.

ردَّ علي: - لقد كان مقدراً لك، أن تكون سبباً لرزقي دون غيري، قالها مبتسما، أبو زياد، تابع حديثه:

- للتوّ أنزلت مركبة وكنت في طريقي إلى مركز الانتظار، ورأيتك وسوف أوصلك إلى مكان تغيير الإطارات، ثم أمضي، واليوم هو آخر يوم عمل لي؛ حيث حجزت للسفر غداً لرؤية أبنائي الذين لم أرهم منذ أربع سنوات، لمشكلات إدارية بين الشركة والجهات الحكومية.

- سهل الله لك أمرك، ورزقك وبارك لك.

– عَمَلُنا فيه من التوكل على الله، ما لم أكن أدركه من قبل، أخرج في الصباح، ولا أعلم كم سأجني، أسعى في الطرقات، أنتظر رنة الهاتف، من الصباح الباكر إلى الساعة العاشرة ليلاً، ربما أرتاح ساعة بعد صلاة الظهر، حين تزدحم الطرقات، أحياناً يمضي نصف اليوم دون أن أرزق بدينار واحد، وأحياناً لا أكاد أتوقف عن نقل مركبات متعطلة، وأجني أكثر من مئة دينار، في يوم واحد، أيقنت أن على العبد السعي، وعلى الله الرزق، كما قال تعالى: ﴿**وفي السماء رزقكم**﴾.

لم يكمل أبو زيادة الآية.

– صدقت... يحتاج العبد أن يذكّر نفسه أن الرزق بيد الله وأن رزقه سيناله لا محالة، كما قال ﷺ: «**يا أيها الناس اتقوا الله وأجملوا في الطلب؛ فإن نفسا لن تموت حتى تستوفي رزقها وإن أبطأ عنها، فاتقوا الله وأجملوا في الطلب خذوا ما حل ودعوا ما حرم**» (صحيح ابن ماجه)، وفي الحديث عن أبي الدرداء قال: قال رسول الله ﷺ: «**إن الرزق ليطلب العبد أكثر مما يطلبه أجله**» (صحيح الجامع).

قاطعني أبو زياد.

– سبحان الله، هذه أول مرة أسمع هذا الحديث، فالجميع يعلم أن الأجل آت في موعده دون تقديم أو تأخير، الرزق أشد طلباً للعبد من أجله؟ سبحان الله.

– نعم، هو كذلك. قاطع أبو زياد تعليقه، وهو يناولني ورقة.

– لو سمحت اكتب لي نص هذا الحديث.

- فعلت، ووضعت الورقة بجانبه.

- سأطبع هذا الحديث وأعلقه أمامي.

وإليك حديث آخر.

عن عبدالله بن مسعود - رضي الله عنه - أن ضيفاً نزل على رسول الله ﷺ فأرسل إلى أزواجه يبتغي عندهن طعاماً لضيفه، فلم يجد عند واحدة منهن شيئاً، فقال: «**اللهم إني أسألك من فضلك ورحمتك فإنه لا يملكها إلا أنت**»، **قال: فأهدي إليه شاة مصلية (مشوية)، فقال: «هذه من فضل الله ونحن ننتظر الرحمة**» (السلسلة الصحيحة).

- أحاديث جميلة تريح القلب، مع أن بعض زملائي في هذه المهنة، يتذمرون إذا مر يوم، ولم يجن ما كان يرجو من المال، وأنا أقول لهم دائما ﴿**وفي السماء رزقكم**﴾.

- هذه سنة الله في الرزق، أن العبد يبذل ما يستطيع في السعي لنيل الرزق الحلال، ويترك الأمر لله، موقناً بأن الله سيرزقه، فيكون بهذا المبدأ، يؤمن بأن الرزق مكتوب مقدر، قبل خلق السماوات والأرض، وأنه ينزل بأسبابه، فسنة الله قائمة على السببية والتعليل، وأن زيادة الرزق أو نقصانه إنما هو بحكمة الله عز وجل، كما قال تعالى: ﴿ٱللَّهُ يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦ وَيَقۡدِرُ لَهُۥٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٦٢﴾ (العنكبوت).

وتذييل هذه الآية بقوله سبحانه: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَيۡءٍ عَلِيمٞ ٦٢﴾، تغني العبد عن أي اعتراض.

سنة الله في شكر النعم

وكيف يمكنني أن أتتبع (سنن الله) عز وجل في القرآن الكريم؟

- إذا قرأت القرآن بتدبر تتبع الآيات التي ترد فيها (تأذَّن) أو (كَتَبَ).. أو (حقاً علينا)... وبالطبع عندما ترد كلمة (سنة الله) صراحة.. أو ذكر ومصير الأمم السابقة مثل قوله تعالى: ﴿أَكُفَّارُكُمْ خَيْرٌ مِّنْ أُولَٰئِكُمْ أَمْ لَكُمْ بَرَاءَةٌ فِي الزُّبُرِ ﴿٤٣﴾﴾ (القمر).. أو ذكر عذاب (الظالمين أو المجرمين أو المنافقين) في الدنيا.

وهناك من كَتَبَ في هذا الجانب من العقيدة.. مثل شيخ الإسلام ابن تيمية وابن القيم.. وكتب التفسير.. ومن المعاصرين.. عبد الكريم زيدان والمنجد وغيرهما..

كنت وصاحبي نتحدث عن الآيات التي قرأها إمامنا في صلاة العشاء.. وكانت من سورة إبراهيم.. وبالخصوص قوله تعالى: ﴿وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لَأَزِيدَنَّكُمْ وَلَئِن كَفَرْتُمْ إِنَّ عَذَابِي لَشَدِيدٌ ﴿٧﴾﴾ (إبراهيم).

- دعني أقرأ لك شيئاً مما ورد في تفسير هذه الآية...

كان مرجعي هاتفي.. ومن تفسير ابن عاشور..

- علق الله سبحانه على (الشكر).. (الزيادة) وعلى (الصبر) (الجزاء بغير حساب).. وأيضاً فإنه أطلق (جزاء الشاكرين) وقيد (جزاء الصابرين بالإحسان) فقال سبحانه: ﴿وَلَنَجْزِيَنَّ الَّذِينَ صَبَرُوا أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾﴾ (النحل)، قال عطاء: تأذَّن ربكم.. حكم ربكم..

أعلمكم ربكم.. وقال الشيخ ابن عطاء الله: «من لم يشكر النعم فقد تعرّض لزوالها، ومن شكرها فقد قيّدها بعقالها».

المسافة بين منازلنا والمسجد نقطعها بأقل من عشر دقائق مشياً معتدلاً.. فهي لا تزيد عن (ألف خطوة)!

- وهل الشكر يكون لنعمة محدثة أم للنعم الدائمة.. مثل نعمة العافية والسمع والبصر والمال والعائلة...

- كل هذه تستوجب شكر الله.. وإذا طرأت نعمة جديدة... سجد شكراً لله!! ولو تدبَّرنا كتاب الله وتتبعنا الآيات التي ورد فيها (الشكر) بتصريفاته.. لوجدنا أنها وردت خمساً وسبعين مرة وفي اللغة.. (الشكر: الثناء على المحسن بذكر إحسانه).

قال تعالى: ﴿هَلْ أَتَىٰ عَلَى ٱلْإِنسَٰنِ حِينٌ مِّنَ ٱلدَّهْرِ لَمْ يَكُن شَيْـًٔا مَّذْكُورًا ﴿١﴾ إِنَّا خَلَقْنَا ٱلْإِنسَٰنَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ فَجَعَلْنَٰهُ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٢﴾ إِنَّا هَدَيْنَٰهُ ٱلسَّبِيلَ إِمَّا شَاكِرًا وَإِمَّا كَفُورًا ﴿٣﴾﴾ (الإنسان).

في هذه الآية الناس صنفان.. شاكر أو كفور.. وفي تفسير السعدي: «فانقسم الناس قسمين شاكراً لنعمة الله عليه قائماً بما حمله الله من حقوقه، كفوراً لنعمة الله عليه أنعم الله عليه بالنعم الدينية والدنيوية، فردها وكفر بربه، وسلك الطريق الموصلة للهلاك»، وقال تعالى عن غاية إبليس مع ابن آدم:

﴿قَالَ فَبِمَآ أَغْوَيْتَنِى لَأَقْعُدَنَّ لَهُمْ صِرَٰطَكَ ٱلْمُسْتَقِيمَ ﴿١٦﴾ ثُمَّ لَءَاتِيَنَّهُم مِّنۢ بَيْنِ أَيْدِيهِمْ وَمِنْ خَلْفِهِمْ وَعَنْ أَيْمَٰنِهِمْ وَعَن شَمَآئِلِهِمْ ۖ وَلَا تَجِدُ أَكْثَرَهُمْ شَٰكِرِينَ ﴿١٧﴾﴾ (الأعراف).

وقال سبحانه: ﴿وَكَذَٰلِكَ فَتَنَّا بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لِّيَقُولُوٓاْ أَهَٰٓؤُلَآءِ مَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنۢ بَيْنِنَآۗ أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ (الأنعام).

وقد عُلم من قوله: ﴿أَلَيْسَ ٱللَّهُ بِأَعْلَمَ بِٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ أنه أيضاً أعلم بأضدادهم وضد الشكر: الكفر.

والشكر يكون بالقلب، إقراراً بالنعم، واعترافاً، وباللسان، ذكراً وثناء، وبالجوارح، طاعة لله وانقياداً لأمره، واجتناباً لنهيه، فالشكر فيه بقاء النعمة الموجودة، وزيادة في النعم المفقودة.

قاطع صاحبي قراءتي من الهاتف لينبهني إلى الطريق الذي يجب أن نقطعه لنصل إلى منازلنا..

سألني:

- هل شكر النعمة يستوجب زيادتها؟!

- نعم هذه سنة إلهية وقانون رباني.. من أدَّى شكر النعمة كاملاً زاده الله منها ومن خيرٍ منها.. هذه قاعدة لا تتخلف ولا تتبدل كما (السنن الإلهية) الأخرى.

- أظن أن مشكلة معظم الناس في عدم تقدير نعم الله عليهم... أنهم اعتادوا هذه النعم.. والبعض يستقلّ نعم الله عليه لما يرى عند غيره ممن رزقهم الله أكثر منه!!

- صدقت يا (أبا جراح).. أما الأولى فعلاجها إلتزام الأذكار التي أرشدنا إليها رسول الله ﷺ كما في الحديث..

يا شداد بن أوس إذا رأيت الناس قد اكتنزوا الذهب والفضة فاكنز هؤلاء الكلمات: «**اللهم إني أسألك الثبات في الأمر والعزيمة على الرشد وأسألك موجبات رحمتك وعزائم مغفرتك وأسألك شكر نعمتك وحُسن عبادتك، وأسألك قلباً سليماً ولساناً صادقاً وأسألك من خير ما تعلم، وأعوذ بك من شر ما تعلم، وأستغفرك لما تعلم إنك أنت علام الغيوب**». (الصحيحة)

وكذلك حديث معاذ.. في الذكر بعد الصلوات الخمس...

عن معاذ بن جبل قال: أخذ بيدي رسول الله ﷺ فقال: «**إني لأحبك يا معاذ**»، **فقلت: وأنا أحبك يا رسول الله، قال:** «**فلا تدَع أن تقول في دبر كل صلاة: رب أعني على ذكرك وشكرك وحُسن عبادتك**». (رواه أحمد وأبو داود والنسائي إلا أن أبا داود لم يذكر: قال معاذ وأنا أحبك) (صحيح - الألباني).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه، قال رسول الله ﷺ: «**أتحبون أن تجتهدوا في الدعاء؟ قولوا: اللهم أعِنَّا على شكرك وذكرك وحسن عبادتك**» (السلسلة الصحيحة).

هذه الأحاديث.. تذكَّر العبد بواجب (الشكر).. لنعم الله.. وربما النظر والتفكر في أحوال من فقد النعمة يبين عظمها.. زيارة المرضى والمقعدين.. تذكَّر بنعمة العافية.. ومعرفة أحوال الفقراء والمعوزين تذكر بنعمة المال.. وتدبر أحوال الغافلين والمشركين.. تذكر بنعمة الهداية.. وهي أعظم نعمة ينبغي على العبد أن يشكر الله عليها.

❋❋❋❋❋

بطر العيش

منذ فترة بدأ الألم يتسلل إلى ركبتي اليسرى، دون سبب ظاهر، ولماذا اليسرى دون اليمنى؟! ازداد الألم بعد ثلاثة أشهر؛ بحيث عجزت عن ثني ركبتي في التشهد، قررت مراجعة استشاري جراحة العظام تخصص الركبتين.

أُقدر أنه في منتصف الخمسينيات، من ليبيا، مكث في أوروبا عشرين سنة، ثم قرر الانتقال إلى بلد مسلم؛ ليتمكن وأسرته من العيش في بيئة إسلامية.

- هذه خشونة واضحة.

- ولماذا اليسرى دون اليمنى؟

- لا سبب طبي أعلمه لذلك، سوف أحقنك بإبرة في الركبة، فيها علاج لفترة ربما ستة أشهر أو سنوات.

طلب من الممرض إحضار الحقنة من الصيدلية، بعد أن دفعت ثمنها.

- هذه البلاد في نعمة عظيمة من الله عز وجل، حتى بالنسبة لدول الخليج الأخرى، أشعر فيها براحة روحية، وطاقة إيمانية، مع ما فيها من رغد العيش وسعة الرزق.

- الحمد لله، هذا فضل من الله، نسأله أن يديمها علينا ويزيدها ولا يسلبنا إياها.

– إن الله لا يسلب نعمة على أمة دون سبب، كما قال تعالى: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمۡ يَكُ مُغَيِّرٗا نِّعۡمَةً أَنۡعَمَهَا عَلَىٰ قَوۡمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُواْ مَا بِأَنفُسِهِمۡ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٞ ٥٣﴾ (الأنفال).

شعرت أن صاحبي لديه علم شرعي جيد، ويحفظ من القرآن والحديث ما يؤهله لذلك، أعطيته المجال أن يتابع حديثه.

– هذه الآية تأتي بعد الآية التي يذكر فيها الله عز وجل آل فرعون، والمعنى أن سنة الله جرت أنه لا يسلب نعمة أنعمها على قوم حتى يغيروا ذلك بأنفسهم، وأن آل فرعون والذين من قبلهم كانوا من جملة الأقوام الذين أنعم الله عليهم فتسببوا بأنفسهم في زوال النعمة، وهذا إنذار لقريش – بل ولكل أمة حتى يوم القيامة– أن يحل بهم ما حل بغيرهم! كانت ردة فعلي التلقائية:

– «**اللهم إنا نعوذ بك من زوال نعمتك وتحول عافيتك وفجأة نقمتك وجميع سخطك**» (صحيح الجامع).

– اللهم آمين.

– صدقت د. هاني، ومصداق ذلك قوله تعالى في سورة القصص: ﴿وَكَمۡ أَهۡلَكۡنَا مِن قَرۡيَةِۭ بَطِرَتۡ مَعِيشَتَهَاۖ فَتِلۡكَ مَسَٰكِنُهُمۡ لَمۡ تُسۡكَن مِّنۢ بَعۡدِهِمۡ إِلَّا قَلِيلٗاۖ وَكُنَّا نَحۡنُ ٱلۡوَٰرِثِينَ ٥٨﴾ (القصص).

– أليس (بطر النعمة)، مرادف لـ(كفر النعمة)؟

– ربما البطر، أقل درجة من كفر النعمة، (البطر) أشر أهل الغفلة.

قاطعني:

– فسرت الماء بالماء؟ وما الأشر؟

ابتسمت ضاحكا!

– قيل، الأشر أشد من البطر، يصحبه الفرح والغرور، وقيل هما كلمتان إذا اجتمعتا افترقتا في المعنى، وإذا تفرقتا اجتمعتا في المعنى، ولا فرق بين (بطر النعمة) و(كفر النعمة)؛ فبطر النعمة يفيد أنه عظّمها وبغى فيها، و(كفر النعمة) عظمها، وجحد المنعم، وقيل (بطر النعمة) أساء استخدامها.

انتقلنا إلى غرفة (الضماد)، استلقيت على السرير، ننتظر أن يجهز الممرض الحقنة.

– ولفظ (كم)، في قوله تعالى: ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ﴾، تدل على الكثرة؛ بحيث يصبح هذا الحال الغالب، لهذه المسألة.

قاطعني د. هاني:

– حضرتني الآن قصة سبأ، في قوله تعالى: ﴿لَقَدْ كَانَ لِسَبَإٍ فِي مَسْكَنِهِمْ ءَايَةٌۖ جَنَّتَانِ عَن يَمِينٍ وَشِمَالٍۖ كُلُوا۟ مِن رِّزْقِ رَبِّكُمْ وَٱشْكُرُوا۟ لَهُۥۚ بَلْدَةٌ طَيِّبَةٌ وَرَبٌّ غَفُورٌ ﴿١٥﴾﴾ (سبأ).

سكت قليلا يستذكر الآيات، نعم، تابع حديثه: ﴿ فَأَعْرَضُوا۟ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ سَيْلَ ٱلْعَرِمِ وَبَدَّلْنَٰهُم بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتَىْ أُكُلٍ خَمْطٍ وَأَثْلٍ وَشَىْءٍ مِّن سِدْرٍ قَلِيلٍ ﴿١٦﴾ ذَٰلِكَ جَزَيْنَٰهُم بِمَا كَفَرُوا۟ۖ وَهَلْ نُجَٰزِىٓ إِلَّا ٱلْكَفُورَ ﴿١٧﴾﴾ (سبأ).

– أحسنت.

– وكذلك قول الله تعالى: ﴿وَضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا قَرْيَةً كَانَتْ ءَامِنَةً مُّطْمَئِنَّةً يَأْتِيهَا رِزْقُهَا رَغَدًا مِّن كُلِّ مَكَانٍ فَكَفَرَتْ بِأَنْعُمِ ٱللَّهِ فَأَذَٰقَهَا ٱللَّهُ لِبَاسَ ٱلْجُوعِ وَٱلْخَوْفِ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١١٢﴾ وَلَقَدْ جَآءَهُمْ رَسُولٌ مِّنْهُمْ فَكَذَّبُوهُ فَأَخَذَهُمُ ٱلْعَذَابُ وَهُمْ ظَٰلِمُونَ ﴿١١٣﴾﴾ (النحل).

– أظن هذه الآية الأخيرة، نزلت في قريش.

– نعم.

وضع الدكتور كمام الأنف على وجهه وطلب مني أن أثني ركبتي، عقمها جيداً، تحسس المكان الذي يريد أن يدخل الحقنة فيه، تجنبت النظر، أغمضت عيني، وانتهينا من الأمر، وضع لزقة طبية مكان الحقنة، تابعنا حديثنا: سألته، لماذا حقنت في هذه النقطة بالذات؟

– الركبة غرفة واحدة، حيثما حقنت يصل الدواء ولكنني أفضل المكان الذي أظن أنه أقل إيلاماً!

– أحسنت وجزاك الله خيرا.

تابعنا حديثنا.

ذكر الله مثلاً لمكة التي سكنها أهل الشرك بالله... القرية التي كانت آمنة مطمئنة، وكان أمنها أن العرب كانت تتعادى، ويقتل بعضها بعضاً، ويَسْبي بعضها بعضاً، وأهل مكة لا يُغار عليهم، ولا يحاربون في بلدهم، فذلك كان أمنها كانت بلدة ليس فيها زرع ولا شجر، ولكن يسَّر الله لها

الرزق يأتيها من كل مكان، فجاءهم رسولٌ منهم يعرفون أمانته وصدقه، يدعوهم إلى أكمل الأمور، وينهاهم عن الأمور السيئة، فكذبوه وكفروا بنعمة الله عليهم، فأذاقهم الله ضد ما كانوا فيه، وألبسهم لباس الجوع الذي هو ضد الرغد، والخوف الذي هو ضد الأمن، وذلك بسبب صنيعهم وكفرهم وعدم شكرهم ﴿وَمَا ظَلَمَهُمُ ٱللَّهُ وَلَٰكِن كَانُوٓاْ أَنفُسَهُمۡ يَظۡلِمُونَ ٣٣﴾ (النحل).

❋❋❋❋❋

سُنَّة الله في المترفين

يحرص كثير من المصلين على أداء صلاة العشاء في مسجدنا وإن لم يكن الأقرب إلى منازلهم، ذلك أن إمامنا لا يطيل الصلاة، فضلا عن حُسن تلاوته، وطيب أخلاقه.

قرأ آيات من سورة الواقعة، بعد الصلاة صحبته واثنين من المصلين.

– لماذا وصف الله (أصحاب الشمال) أول ما وصفهم ﴿إِنَّهُمْ كَانُوا۟ قَبْلَ ذَٰلِكَ مُتْرَفِينَ ﴿٤٥﴾﴾ (الواقعة) ثم قال: ﴿وَكَانُوا۟ يُصِرُّونَ عَلَى ٱلْحِنثِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٤٦﴾﴾ (الواقعة) إلى آخر الآيات؟!

– سؤال جميل، نعم يتساءل المرء، وهل (الترف) ذنب يستحق كل هذا العذاب؟! والجواب على ذلك في تقصي آيات الكتاب؛ حيث ورد هذا الوصف، مع الاطلاع على تفسير هذه الآيات.

علق (أبو خالد).

– حقيقة، سؤال مستحق؟ هل (الترف) ذنب؟

تابع شيخنا بيانه.

– (الترف) لغة: التنعم، و(الترف) النعمة، و(المترف) هو الذي أبطرته النعمة وسعة العيش عن الإيمان بالله، واتباع الرسول.

وهذا المعنى الأخير هو الوارد في كتاب الله، وذلك باستقصاء الآيات التي ورد فيها هذا الوصف، يقول الله تعالى:

﴿ وَإِذَآ أَرَدْنَآ أَن نُّهْلِكَ قَرْيَةً أَمَرْنَا مُتْرَفِيهَا فَفَسَقُوا۟ فِيهَا فَحَقَّ عَلَيْهَا ٱلْقَوْلُ فَدَمَّرْنَٰهَا تَدْمِيرًا ﴿١٦﴾ ﴾ (الإسراء).

والمعنى أن سبب هلاك الأمم أننا نرسل المرسلين فيأمرون الناس بمراد الله، فيكون أول من يعصي هذه الأوامر ويعترض عليها (المترفون)، ويتمادون بفسقهم، فيحق عليهم العذاب، فتُدمر تلك الأمة، وهذا كقوله عز وجل:

﴿ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَا فِى كُلِّ قَرْيَةٍ أَكَٰبِرَ مُجْرِمِيهَا لِيَمْكُرُوا۟ فِيهَا ۖ وَمَا يَمْكُرُونَ إِلَّا بِأَنفُسِهِمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿١٢٣﴾ ﴾ (الأنعام).

وهكذا الحال في الآخرة يلوم العامة والضعفاء، السادة والكبراء:

﴿ وَإِذْ يَتَحَآجُّونَ فِى ٱلنَّارِ فَيَقُولُ ٱلضُّعَفَٰٓؤُا۟ لِلَّذِينَ ٱسْتَكْبَرُوٓا۟ إِنَّا كُنَّا لَكُمْ تَبَعًا فَهَلْ أَنتُم مُّغْنُونَ عَنَّا نَصِيبًا مِّنَ ٱلنَّارِ ﴿٤٧﴾ ﴾ (غافر).

تدخل (أبو خالد) مرة ثانية:

– إذًا (المترفون)، لا تعني (الأغنياء)؛ لأنه خطر ببالي أن من الصحابة من كان عظيم الثروة، ولديه من المال ما يمكن أن يوصف هذه الأيام بالثراء الفاحش.

ابتسم إمامنا:

– بالتأكيد كلامك صحيح، (الغني) الذي يؤدي حق ماله له مكانته عند الله عز وجل، ولو تذاكرنا بعض الآيات الأخرى التي تذكر المترفين. توقفنا عند مركباتنا، قررنا الاستمرار بالحديث، الكل كان مهتماً لسماع بقية الشرح.

تابع إمامنا:

- يقول الله تعالى: ﴿وَمَآ أَرۡسَلۡنَا فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلۡتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٣٤﴾ وَقَالُواْ نَحۡنُ أَكۡثَرُ أَمۡوَٰلٗا وَأَوۡلَٰدٗا وَمَا نَحۡنُ بِمُعَذَّبِينَ ﴿٣٥﴾ قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (سبأ).

ويقول الله تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ مَآ أَرۡسَلۡنَا مِن قَبۡلِكَ فِي قَرۡيَةٖ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتۡرَفُوهَآ إِنَّا وَجَدۡنَآ ءَابَآءَنَا عَلَىٰٓ أُمَّةٖ وَإِنَّا عَلَىٰٓ ءَاثَٰرِهِم مُّقۡتَدُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (الزخرف).

ويقول تعالى: ﴿وَقَالَ ٱلۡمَلَأُ مِن قَوۡمِهِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَكَذَّبُواْ بِلِقَآءِ ٱلۡأٓخِرَةِ وَأَتۡرَفۡنَٰهُمۡ فِي ٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مَا هَٰذَآ إِلَّا بَشَرٞ مِّثۡلُكُمۡ يَأۡكُلُ مِمَّا تَأۡكُلُونَ مِنۡهُ وَيَشۡرَبُ مِمَّا تَشۡرَبُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (المؤمنون).

ففي هذه الآيات يبين الله عز وجل أن أهل (الترف) يرون أنهم مميزون عن غيرهم بكثرة المال والجاه والأولاد، فهم عِلّية أقوامهم، والنخبة في مجتمعاتهم، وإليهم يرجع الرأي، وبهم يقتدي عامة الناس، فجعلوا نعمة الله عليهم، من مالٍ وولد، سبباً لهم أن الله لن يعذبهم! بهذا (المنطق) الضيق والمحدود، ظنوا أنهم على حق، أمر الله رسوله ﷺ أن يرد عليهم: ﴿قُلۡ إِنَّ رَبِّي يَبۡسُطُ ٱلرِّزۡقَ لِمَن يَشَآءُ وَيَقۡدِرُ وَلَٰكِنَّ أَكۡثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعۡلَمُونَ ﴿٣٦﴾﴾ (سبأ).

ونتيجة خداعهم لأنفسهم، أَعطوا الحق لأنفسهم أن يردوا دعوات الرسل، ويتبعوا ما أرادوا- في دينهم، ويفعلوا ما شاؤوا في أموالهم، وهذا حال المترفين في كل أمة، ويمكن أن نسميهم بـ(الملأ)، الذين هم عِلّية القوم من أصحاب النفوذ المالي والاجتماعي، وهؤلاء مصيرهم الهلاك

في الدنيا قبل الآخرة؛ فإن الله يهلك المترفين والمسرفين، في سورة الأنبياء يقول الله -تعالى:

﴿وَكَمْ قَصَمْنَا مِن قَرْيَةٍ كَانَتْ ظَالِمَةً وَأَنشَأْنَا بَعْدَهَا قَوْمًا ءَاخَرِينَ ﴿١١﴾ فَلَمَّآ أَحَسُّوا۟ بَأْسَنَآ إِذَا هُم مِّنْهَا يَرْكُضُونَ ﴿١٢﴾ لَا تَرْكُضُوا۟ وَٱرْجِعُوٓا۟ إِلَىٰ مَآ أُتْرِفْتُمْ فِيهِ وَمَسَٰكِنِكُمْ لَعَلَّكُمْ تُسْـَٔلُونَ ﴿١٣﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿١٤﴾ فَمَا زَالَت تِّلْكَ دَعْوَىٰهُمْ حَتَّىٰ جَعَلْنَٰهُمْ حَصِيدًا خَٰمِدِينَ ﴿١٥﴾﴾ (الأنبياء).

هذه سنة الله فيمن أترفوا؛ فكان (ترفهم) سبباً في رد أمر الله، فاستحقوا الهلاك، هذا قانون إلهي نافذ لا يتبدل ولا يتحول. وفي سورة هود يقول الله -تعالى:

﴿فَلَوْلَا كَانَ مِنَ ٱلْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُو۟لُوا۟ بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْفَسَادِ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ ۗ وَٱتَّبَعَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مَآ أُتْرِفُوا۟ فِيهِ وَكَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿١١٦﴾﴾ (هود).

هذا حال (المترفين) على العموم الطغيانُ والظلم ورد الحق والتكبر على دعوة الرسل؛ فكان القانون الإلهي العادل في حقهم، الهلاك في الدنيا، وفي هذه السنة تحذير للمترفين إلى يوم القيامة، وتنبيه للعامة إلى يوم القيامة ألا يتبعوا المترفين؛ لأنهم لن ينفعوهم لا في الدنيا ولا في الآخرة.

❋❋❋❋❋

إن مع العسر يسراً

- إن المؤمن بالله يعيش حياة مطمئنة.. فضلاً عن النعيم الدائم يوم القيامة.. العقيدة الصحيحة بالله.. ليست سبيلاً للفوز بالجنة فحسب.. بل السبب الأول لحياة دنيوية.. مستقرة.. مهما اشتدت الظروف.. وضاقت الأحوال.. ويكفي في ذلك حديث صهيب بن سنان الرومي.. قال رسول الله ﷺ: «**عجبت لأمر المؤمن إن أمره كله خير.. إن أصابه ما يحب حمد الله وكان له خير وإن أصابه ما يكره صبر فكان له خير.. وليس كل أحد أمره كله خير إلا المؤمن**» (السلسلة الصحيحة).

- قليل من يتذكر هذه الحقيقة ويعمل بمقتضاها.

كنت وصاحبي في رحلة علاج إلى بانكوك... تواصل معهم من الكويت.. لديهم قسم خاص باللغة العربية.. وفْق الموعد كانت المركبة تنتظرنا أمام الفندق قبل الساعة الثامنة صباحاً!!

- هؤلاء القوم.. الذين لا يؤمنون بشيء.. أو يعبدون شيئاً غير الله عز وجل.. تنهار حياتهم إذا توالت عليهم المصائب.. المرض.. ضيق العيش.. الفيضانات.. الزلازل.. لا يجدون مصدراً للأمان والطمأنينة.. وراحة النفس.. أما المؤمن بالله.. ينزل به البلاء.. تلو البلاء.. فلا يزداد إلا إيماناً بالله.. ورجوعاً إلى الله.. وثقة بالله.. لأنه على علم بسنن الله عز وجل.. و﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ (الشرح)..

والله لا يبتلي العبد بُغضاً فيه.. بل ليزيده تقرباً.. وأجراً.. والعبد يعلم

أن الله ﴿**لا يظلم مثقال ذرة**﴾.. و(أن ما أصابه لم يكن ليخطئه).. وأن المصيبة.. معها.. الفرج!!!

أخبرَنا السائق أن الزمن للوصول إلى المشفى نصف ساعة تقريباً.

سألت صاحبي..

- ألم يرد حديث عن النبي ﷺ: «لن يغلب عسر يسرين».. في شرح قوله تعالى:

﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ (الشرح)؟!

- لا يثبت هذا الحديث عن النبي ﷺ.. بل هو حديث مرسل ويبدو أنه من كلام الحسن البصري - رحمه الله -.

ولكن في الأثر عن ابن مسعود رضي الله عنه: «لو كان العسر في جحر لتبعه اليسر حتى يدخل فيه فيخرجه ولن يغلب عسرٌ يسرين»..

وهذه من سنن الله الثابتة النافذة الدائمة.. لا يأتي عسر إلا معه.. وليس بعده.. بل معه يسر..

يقول تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ (الطلاق).

عقَّب صاحبي:

- دعني أبحث عن كلمة (يسر) في كتاب الله...

أتم بحثه بأقل من نصف دقيقة...

- وردت كلمة (يسر) بكل صيغها إحدى وأربعين (٤١) مرة.. مثل قول الله تعالى: ﴿وَلَقَدْ يَسَّرْنَا ٱلْقُرْءَانَ لِلذِّكْرِ فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ۝١٧﴾ (القمر).

وقوله تعالى: ﴿فَسَنُيَسِّرُهُۥ لِلْيُسْرَىٰ ۝٧﴾ (الليل).. وقوله عز وجل: ﴿وَيَسِّرْ لِيٓ أَمْرِى ۝٢٦﴾ (طه).

وقوله سبحانه: ﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥).

واقترن (اليسر) بـ (العسر) في أربع آيات..

﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ بِكُمُ ٱلْيُسْرَ وَلَا يُرِيدُ بِكُمُ ٱلْعُسْرَ﴾ (البقرة: ١٨٥).. و﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ (الطلاق).. و﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ (الشرح).

فاليسر يأتي بمعنى.. الفرج.. السهولة.. الغنى.. التخفيف.. الرخاء.

عَرَضَ علينا السائق عبوتَي ماء.. أخذناهما.. شربت قليلاً.. واحتفظ صاحبي بها ولم يفتحها.

- ماذا عن تفسير آيتي الشرح؟!

- من أجمل ما قرأت في شرحهما.. وهو شرح خارج المألوف مما ورد في كتب التفسير.. ما كتبه ابن عاشور في التحرير والتنوير.. (يخاطب الله عز وجل نبيه.. يواسيه.. عما قاله كفار قريش حين عرضوا عليه المال.. ليكون أغناهم.. لا يحزنك قولهم فإن بعد الضيق الذي أنت فيه سيكون لك سعة في الدنيا.. وكان ذلك بأن فتح له الفتوح فكان يعطي.. عطاء من لا يخشى الفقر.. ويهب المئين من الإبل.. ثم ذكر أن له فضلاً آخر.. في الآخرة.. بعد هذه الحياة...) انتهى بتصرف.. فالمعنى أن الأولى للدنيا..

والثانية للآخرة.. مع أن أغلب المفسرين قالوا.. إن الثانية تأكيد للأولى وأن العسر المذكور في الآية الثانية هو ذات العسر المذكور في الآية الأولى.. لوجود ألف لام التعريف... أما اليسر في الآية الثانية فمختلف عن اليسر في الآية الأولى.. لأنه نكرة!!!

- جميل... لنقرأ تفصيل ذلك...

استخرج صاحبي كتاب التنوير في هاتفه وأخذ يقرأ.

جملة ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ (الطلاق)، تكملة للتذييل فإن قوله: ﴿لَا يُكَلِّفُ ٱللَّهُ نَفْسًا إِلَّا مَآ ءَاتَىٰهَا﴾ يناسب مضمون جملة ﴿لِيُنفِقْ ذُو سَعَةٍ مِّن سَعَتِهِۦ﴾، ومعناه: عسى أن يجعل الله بعد عُسركم يُسراً لكم فإن الله يجعل بعد عسر يسراً. وهذا الخبر لا يقتضي إلا أن من (سنن الله) أن يجعل بعد عسر قوم يسراً لهم، فمن كان في عسر رجا أن يكون ممن يشمله فضل الله، فيبدل عسره باليسر.

ومن بلاغة القرآن الإتيان بـ(عسر ويسر) نكرتين غير معرفين باللام لئلَّا يتوهم من التعريف معنى الاستغراق كما في قوله تعالى: ﴿فَإِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٥ إِنَّ مَعَ ٱلْعُسْرِ يُسْرًا ۝٦﴾ (الشرح).

أي إذا علمت هذا وتقرر، تعلمُ أن اليسر مصاحب للعسر، وإذ كان اليسر نقيض العسر كانت مصاحبة اليسر للعسر مقتضية نقض تأثير العسر ومبطلة لعمله، وسياق الكلام وعد للنبي ﷺ بأن يُيَسر الله له المصاعب كلما عرضت له، فاليسر لا يتخلَّف عن اللحاق بتلك المصاعب، وذلك من خصائص كلمة (مع) الدالة على المصاحبة.

وكلمة (مع) هنا مستعملة في غير حقيقة معناها لأن العسر واليسر نقيضان فمقارنتهما معاً مستحيلة، فتعين أن المعية مستعارة لقرب حصول اليسر عقب حلول العسر أو ظهور بوادره، بقرينة استحالة المعنى الحقيقي للمعية، وبذلك يندفع التعارض بين هذه الآية وبين قوله تعالى: ﴿سَيَجْعَلُ ٱللَّهُ بَعْدَ عُسْرٍ يُسْرًا ۝٧﴾ (الطلاق).

❋❋❋❋❋

إنكار المنكر ينجي!

- وماذا لو لم نتمكن من تغيير المنكر.. وإيقافه؟

- ليس المطلوب إيقاف المنكر.. وإنما إنكاره.. وفرقٌ كبير بينهما..

- ألم يرد في الحديث..

«من رأى منكم منكراً.. فليغيره بيده.. فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان».

- نعم.. الحديث عن أبي سعيد الخدري وهو في صحيح مسلم...

- والرسول ﷺ استعمل كلمة... (فليغيره).. أي يوقفه.. ويزيله.. كنت وصاحبي نتحاور بين العشائين.. جاء إلى المسجد فجر ذلك اليوم قبل الأذان ورأى مركبتين عند المسجد... اشتبه أنهما يقومان بأمور منكرة!!

- ولكن (لإنكار المنكر) فقه.. وأحكام ينبغي أن يعلمها من أراد أن ينكر المنكر.. كما في جميع العبادات.. (العلم قبل العمل).. ولكن يجب على العبد إنكار المنكر... ولو في حده الأدنى إن لم يستطع حتى ينجو من العذاب!!

- ماذا تعنى بهذه العبارة؟؟

- من (سنن الله) عز وجل.. أن ينجي من ينكر المنكر.. وإن وقع العذاب على الجميع..

- هذه أيضاً عبارة تحتاج إلى تفصيل..

- لنبدأ بقول الله تعالى: ﴿وَإِذْ قَالَتْ أُمَّةٌ مِّنْهُمْ لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُوا مَا ذُكِّرُوا بِهِ أَنجَيْنَا الَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ السُّوءِ وَأَخَذْنَا الَّذِينَ ظَلَمُوا بِعَذَابٍ بَئِيسٍ بِمَا كَانُوا يَفْسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ (الأعراف).

قال الحافظ ابن كثير: «نصّ على نجاة الناهين».

وقال العلامة السعدي: «سنة الله أن العقوبة إذا نزلت نجا منها الآمرون بالمعروف الناهون عن المنكر».

وفي قوله تعالى: ﴿وَاتَّقُوا فِتْنَةً لَّا تُصِيبَنَّ الَّذِينَ ظَلَمُوا مِنكُمْ خَاصَّةً ۖ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢٥﴾﴾ (الأنفال).

قال الحافظ ابن كثير... عن ابن عباس: «أمر الله المؤمنين ألا يقرّوا المنكر بين ظهرانيهم فيعمهم الله بالعذاب!!».

- تفسير جميل.. يؤيد موقفي!!

- نعم.. لا بد من إنكار المنكر.. كلٌّ حسب سلطته.. صاحب السلطات باليد.. وصاحب الكلمة المسموعة باللسان.. ومن لا سلطة له بالقلب.. وذلك أن يكره المنكر.. ولا يرضى به.. ولا يتواجد حيث يقع ويجالس من يفعله!!

- دعني أبحث عن أقول العلماء في هذا الموضوع..

أخرج هاتفه الذكي.. وكلما فعل هذا الأمر أحدهم أو قمت به.. حمدت الله على هذه النعمة العظيمة.. نعمة سهولة الوصول إلى العلم

ومعرفة أقوال العلماء.. في دقائق.. نصل إلى ما كان مَن قبلنا يحتاج إلى ساعات أو أيام ليصل إليه..

اسمع ما وجدت يا (أبا حاتم)..

قال النووي رحمه الله في (شرح صحيح مسلم، ٢/ ٢٣): «ثم إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر: فرض كفاية، إذا قام به بعض الناس، سقط الحرج عن الباقين.

وإذا تركه الجميع: أثم كل من تمكن منه، بلا عذر ولا خوف، ثم إنه قد يتعين - أي يصير واجباً على شخص بعينه - كما إذا كان في موضع لا يعلم به إلا هو، أو لا يتمكن من إزالته إلا هو.

قال العلماء: ولا يسقط عن المكلف الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لكونه لا يفيد في ظنه، بل يجب عليه فعله فإن الذكرى تنفع المؤمنين». (انتهى)

وقال في (مطالب أولي النهى، ١/ ٢٧٦): «الأمر المعروف: لا يجب إلا إذا ظن امتثال المأمور، وهو قول لبعضهم».

وقد حكى القاضي أبو يعلى روايتين عن أحمد في وجوب إنكار المنكر على من يعلم أنه لا يقبل منه، وصح القول بوجوبه، وهذا قول أكثر العلماء، وقد قيل لبعض السلف في هذا فقال يكون لك معذرة وهذا كما أخبر الله تعالى عن الذين أنكروا على الذين اعتدوا في السبت أنهم قالوا لمن قال لهم:

﴿لِمَ تَعِظُونَ قَوْمًا ۙ اللَّهُ مُهْلِكُهُمْ أَوْ مُعَذِّبُهُمْ عَذَابًا شَدِيدًا ۖ قَالُوا مَعْذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾﴾ (الأعراف).

وقد ورد ما يستدل به على سقوط الأمر والنهي عند عدم القبول والانتفاع به عن عبد الله بن عمرو قال: بينما نحن حول رسول الله ﷺ إذ ذكروا الفتنة أو ذُكِرَت عنده، قال: إذا رأيت الناس قد مزجت عهودهم وخفت أماناتهم وكانوا هكذا وشبك بين أصابعه. قال: فقمتُ إليه فقلت له: كيف أفعل عند ذلك جعلني الله فداك... قال ﷺ: «**إلزم بيتك واملك عليك لسانك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر وعليك بأمر خاصة نفسك ودع عنك أمر العامة**» (صحيح الترغيب).

وفي تفسير قوله تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ ۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ ۚ﴾ (المائدة: ١٠٥).

عن ابن مسعود قال: إذا اختلفت القلوب والأهواء، وألبستم شيعاً، وذاق بعضكم بأس بعض، فيأمر الإنسان حينئذ نفسه، تأويل هذه الآية.

وعن ابن عمر: قال: هذه الآية لأقوام يجيئون من بعدنا، إن قالوا لم يقبل منهم.

وهذا كله قد يحمل على أن من عجز عن الأمر بالمعروف، أو خاف الضرر، سقط عنه.

وقد ذهب الشيخ ابن عثيمين رحمه الله إلى قريب من ذلك.

قال رحمه الله: «الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فرض كفاية، إذا قام

به من يكفي: سقط عن الناس، وإذا لم يقم به من يكفي: وجب على الناس أن يأمروا بالمعروف وينهوا عن المنكر، لكن لا بد أن يكون بالحكمة، والرفق، واللين، (من لقاءات الباب المفتوح).

وفي الحديث قال رسول الله ﷺ: «**ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويتقيدون بأمره ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه، فهو مؤمن ليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل**» (رواه مسلم وغيره)

وقال الشيخ ابن باز في تفسير آية الأعراف:

دلَّ على أن الناهين عن السوء هم الذين ينجون عند المصائب، وعند العقوبات يُنجي الله من ينهى عن السوء، فالواجب على المسلمين أن يحذروا عقوبات الله، وأن يتعاونوا على البر والتقوى، وأن يقوموا بهذا الواجب، واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

«ليس وراء ذلك حبة خردل»؟

يعني فيما يتعلق بالإيمان بالأمر والنهي، وليس معناه أنه كافر، ليس بكافر، الإنكار آخرها القلب، ما بقي شيء بعد القلب. (انتهى).

ودعني أختم بهذا الحديث.

عن عائشة رضي الله عنها قالت: قلت: يا رسول الله: إن الله أنزل

سطوته بأهل الأرض وفيهم الصالحون فيهلكون بهلاكهم؟، فقال: يا عائشة: إن الله عز وجل إذا أنزل سطوته بأهل نقمته وفيهم الصالحون فيصيرون معهم ثم يبعثون على نياتهم. (صحيح الترغيب)

– الشاهد من كل ذلك بيان سنة من السنن الإلهية.. (أن من ينكر المنكر ينجيه الله من العذاب).. وكلٌّ حسب طاقته.. وسلطته..

❋❋❋❋❋

إذا عظم المطلوب.. كثرت الموانع!

منذ سنة تقريباً أخذ صاحبي يقرأ كتب الإمام - ابن القيم - رحمه الله.. ويستمع إلى شروح مؤلفاته.. حضورياً.. أو بواسطة ما انتشر في الوسائل الإلكترونية.

- كلما ازددت قراءة لهذا الإمام - رحمه الله - ازددت حباً له.. ذلك أنه يزيدني علماً.. وإيماناً.. ورقة .. وموعظة..

- نعم.. ابن القيم.. له الصدارة في الرقائق.. والموعظة.. مع أنه يورد أحياناً عبارات يصعب على المرء فهمها وتتبعها..

ابتسم صاحبي..

- كأنك تقرأ أفكاري.. نعم واجهت بعض ذلك.. وكنت سأسأل عن جملة.. وردت في (طريق الهجرتين): «كلما عظم المطلوب كثرت العوارض والموانع دونه هذه سنة الله في الخلق» (ج١/ ص ٣٧٠).

كنت وصاحبي في طريقنا لتناول وجبة العشاء مساء الثلاثاء... على أن يلقانا (أبو سعد).. هناك..

استخرجت الكتاب في هاتفي.. وجدت العبارة..

- دعني أكمل لك كلام ابن القيم.. ثم نعلق..

«كلما عظم المطلوب كثرت العوارض والموانع دونه، هذه سنة الله في الخلق، فانظر إلى الجنة وعظمها وإلى الموانع والقواطع التي حالت دونها،

حتى أوجبت أن ذهب من كل ألف رجل واحد إليها، وانظر إلى محبة الله، والانقطاع إليه، والإنابة إليه، والبتل إليه وحده، والأُنس به، واتخاذه ولياً ووكيلاً وكافياً وحسيباً، هل يكتسب العبد شيئاً أشرف منه؟ وانظر إلى القواطع والموانع الحائلة دونه، حتى قد تعلق كل قوم بما تعلقوا به دونه، والطالبون له منهم الواقف مع عمله والواقف مع علمه، والواقف مع حاله، والواقف مع ذوقه وجميعته وحظه من ربه، والمطلوب منهم وراء ذلك كله». انتهى

- بالطبع يقصد بقوله.. «**من كل ألف رجل واحد إليها**».. حديث النبي ﷺ.. «**قال الله تعالى: يا آدم: فيقول لبيك وسعديك والخير في يديك.. فيقول: أخرج بعث النار.. قال: وما بعث النار؟ قال: من كل ألف تسعمئة وتسعة وتسعون فعندها يشيب الصغير وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد**» (صحيح الجامع).

يقول العلامة عبد الرحمن بن يحيى المعلمي - رحمه الله - سنة الله عز وجل في المطالب العالية والدرجات الرفيعة: أن يكون في نيلها مشقة ليتم الابتلاء ويستحق البالغ إلى تلك الدرجة شرفها وثوابها..

قال الله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُمْ حَتَّىٰ نَعْلَمَ ٱلْمُجَٰهِدِينَ مِنكُمْ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَنَبْلُوَا۟ أَخْبَارَكُمْ ﴿٣١﴾﴾ (محمد).

بلغنا المكان الذي نريد.. يبعد عن مسجدنا كيلومترين.. قطعناها في أقل من خمس دقائق!!!

تابعت حديثي..

الابتلاء بالشدائد سواءً كان ذلك من التكاليف التي تشق على كثير منهم كالجهاد والقتال في سبيل الله، أو كان ذلك بما يقع من الهزيمة أو الجراح أو العِلل والأوصاب والأمراض أو الفقر، أو غير ذلك مما يتطلب صبراً فلا بد من هذا، فهو القنطرة إلى الجنة، لا يمكن أن يتوصل إلى الجنة إلا بالعبور على هذه القنطرة، فإن الجنة حُفت بالمكاره، وحُفت النار بالشهوات.

ويحتاج العبد إلى توطين النفس على المكاره وتحملها، والمشقات والقيام بالتكاليف، وما إلى ذلك، أما أن يبقى الإنسان وبضاعته الأماني، فإن هذا رأس مال المفاليس، فهذا التمني من غير بذل الأسباب هو رأس مال المفلس، والجنة لا تدرك بالأماني.

﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا۟ ٱلْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَيَعْلَمَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿١٤٢﴾﴾ (آل عمران).

فيحتاج إلى تثبيتٍ لهذه النفس، وتوطين، وتصبير، وثقة بوعد الله - تبارك وتعالى -، وهكذا الصبر على طول الطريق، وما فيه من العقبات، وما تميل إليه النفس من طلب الراحة والدَّعَة والاسترخاء والترك، وهكذا أيضاً من يحيطون به، حينما يلقون إليه مثل هذه الدعوات والوساوس، ليلحق بركب القاعدين والمتخلفين والناكثين لعهد الله - جل جلاله وتقدست أسماؤه - فصار الجهاد بالقتل للأعداء، وكذلك الجهاد بجميع صوره، ومن ذلك بذل العلم والدعوة إلى الله - تبارك وتعالى - كل هذا جهاد، وقد يكون في بعض الأوقات أحد هذه الأنواع أولى وأبلغ من الآخر.

وقد ذكر الشيخ عبد الرحمن بن سعدي - رحمه الله - هذا المعنى، وأنه كلما عظم المطلوب عظُمت وسيلته، والعمل الموصل إليه، يقول: «فلا يوصل إلى الراحة إلا بترك الراحة، ولا يُدرك النعيم إلا بترك النعيم، ولكن مكاره الدنيا التي تصيب العبد في سبيل الله عند توطين النفس لها، وتمرينها عليها، ومعرفة ما تؤول إليه تنقلب عند أرباب البصائر مِنَحاً يُسرون بها، ولا يُبالون بها، وذلك فضل الله يؤتيه من يشاء.

كان أبو سعد بانتظارنا... حَجَز طاولة مميزة!! بعد السلام والتحية..

- أرى أنكما كنتما في حوار جاد..

- نعم كنا نتحدث عن الإمام ابن القيم - رحمه الله - وسنة من سنن الله في خلقه.. وهي.. كثرة العوارض في طريق عالي المطالب!!

- قاعدة جميلة.. وهل هي سنة من سنن الله في خلقه!!

- نعم.. هكذا وصفها الإمام ابن القيم.. وغيره من العلماء..

- أظن أن شيخ الإسلام ابن تيمية أيضاً لمَّحَ إلى ذلك في ذكره لاستشهاد الإمام الحسين.. رضي الله.. عنه..

أخرج أبو سعد هاتفه بحث فيه..

يقول شيخ الإسلام.. في مجموع الفتاوى (ج٢٥ ص ٣٠٢).

قتل الحسين بن علي رضي الله عنهما يوم عاشوراء قتلته الطائفة الظالمة الباغية وأكرم الله الحسين بالشهادة، كما أكرم بها من أكرم من أهل بيته

أكرم بها حمزة وجعفر وأباه علياً وغيرهم وكانت شهادته مما رفع الله بها منزلته وأعلى درجته فإنه هو وأخوه الحسن سيدا شباب أهل الجنة والمنازل العالية لا تنال إلا بالبلاء، كما قال النبي ﷺ لما سئل أي الناس أشد بلاء، فقال: «**الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل، فالأمثل، يُبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان في دينه صلابة زيد في بلائه وإن كان في دينه رقة خفف عنه ولا يزال البلاء بالمؤمن حتى يمشي على الأرض وليس عليه خطيئة**» رواه الترمذي وغيره، فكان الحسن والحسين قد سبق لهما من الله تعالى ما سبق من المنزلة العالية، ولم يكن قد حصل لهما من البلاء ما حصل لسلفهما الطيب، فإنهما ولدا في عز الإسلام، وتربيا في عز وكرامة والمسلمون يعظمونهما ويكرمونهما ومات النبي ﷺ ولم يستكملا سن التمييز، فكانت نعمة الله عليهما أن ابتلاهما بما يلحقهما بأهل بيتهما كما ابتُلى من كان أفضل منهما فإن علي بن أبي طالب أفضل منهما وقد قُتل شهيداً.

❋❋❋❋❋

جزاء الإحسان.. إحسان!!

- أدوات الاستفهام في اللغة كلها أسماء عدا ثلاثة.. الهمزة و(هل) و(أَم)!!!

كان محاضرنا يتحدث عن الإعجاز اللغوي في القرآن.. شعرت أنه أعمق مما يفهم عامة الحضور.. وذلك أن الغرض مخاطبة المصلين وليس طلبة علم شرعي أو لغوي.

بعد المحاضرة خرجت وصاحبي نتحاور..

- أظن من رتَّب هذا اللقاء لم يُنبه الدكتور المحاضر أن الحضور من عامة الناس، وليسوا من أهل الاختصاص..

- كانت المحاضرة لطلبة السنة النهائية في المعهد الديني.. هكذا أعلن عنها..

- لم أنتبه لذلك.. ولكن الفائدة كانت جيدة بالنسبة لي.. وخاصة عندما أسهب في شرح (هل جزاء الإحسان إلا الإحسان)..

- نعم..

- دوَّنت بعض الملاحظات هنا.. وردت (هل) ثمانين مرة تقريباً في كتاب الله.. وحرف (هل) يأتي مع الجملة الفعلية.. وأحياناً مع الجملة الاسمية..

قاطعني صاحبي..

- دعنا من هذا الكلام «الصعب».. ماذا عن قول الله تعالى: ﴿هل جزاء الإحسان إلا الإحسان﴾ (الرحمن).

- دعني أبحث في مصادر أخرى...

- الإحسان.. يأتي بمعنى الإتقان.. كقوله تعالى: ﴿ٱلَّذِىٓ أَحۡسَنَ كُلَّ شَىۡءٍ خَلَقَهُۥۖ وَبَدَأَ خَلۡقَ ٱلۡإِنسَٰنِ مِن طِينٍ ۝٧﴾ (السجدة).

وورد في الحديث.. عندما فسر النبي ﷺ الإحسان.

«**أن تعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك**» (مسلم).

وإذا ورد مطلقاً فإنه يعني.. «فعل ما هو حسن»... وضده «القبح».

وقيل: «الإحسان: هو فعل ما ينبغي فعله من المعروف».. وهو نوعان: الإنعام إلى الغير.. والإحسان في فعله..

- والمعنى المراد في الآية من سورة (الرحمن)؟!

- أما الإحسان الأول.. فهو (إحسان العبد).. والإحسان الثاني فهو (إحسان الله) عز وجل (جزاءٌ من جنس العمل).. ولا شك أن إحسان الله للعبد.. أضعاف أضعاف ما عمل.. وهذه سنة من السنن الإلهية.. أن جزاء الإحسان.. الإحسان!!

- وهل إحسان الله للعبد في الدنيا أم الآخرة؟!

- قد يكون في الدنيا والآخرة.. أو في الدنيا فقط.. أو في الآخرة فقط!!

أما إحسان الله للعبد في الدنيا.. فهو كل ما يسر للعبد من نعمة.. وفي الآخرة جزاء فعله الحسن في الدنيا.. ولا شك أن هذا أعظم من الأول..

قال الله تعالى: ﴿لَهُم مَّا يَشَآءُونَ عِندَ رَبِّهِمۚ ذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلۡمُحۡسِنِينَ ٣٤ لِيُكَفِّرَ ٱللَّهُ عَنۡهُمۡ أَسۡوَأَ ٱلَّذِي عَمِلُواْ وَيَجۡزِيَهُمۡ أَجۡرَهُم بِأَحۡسَنِ ٱلَّذِي كَانُواْ يَعۡمَلُونَ ٣٥﴾ (الزمر).

- إن للإحسان صوراً كثيرة ومتنوعة، تتنوع بحسب أنواع الطاعة والبر التي أمر الله بها، ولكل منها جزاؤه وأجره الذي وعد الله به، ومنها: الإحسان مع الله وهو أعظم الإحسان وأفضله، وهو الإيمان بالله، وتوحيده، وطاعته، والإنابة إليه، واتباع شرعه، وأن تعبد الله كأنك تراه، وهو مقام الإحسان، الذي أخبر عنه النبي ﷺ في حديث جبرائيل عليه السلام.

والإحسان في العبادة درجتان: الأولى: أن يعبد الإنسان ربه بقلب حاضر كأنه يراه، الثانية: إذا لم يعبد ربه كأنه يراه، فليعبده كأنه هو سبحانه الذي يراه، عبادة الخائف منه، الهارب من عقابه.

وأما الإحسان مع الخلق: أولى الناس به الوالدان والأم بالدرجة الأولى، حيث قال تعالى:

﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعۡبُدُوٓاْ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلۡوَٰلِدَيۡنِ إِحۡسَٰنًا﴾ (الإسراء: ٢٣).

ثم الإحسان إلى الأقارب وهذا النوع من الإحسان، هو صلة الرحم الذي أمر الرسول ﷺ بها، ويكون على حسب حال الواصل والموصول: فتارة يكون بالمال، وتارة بالخدمة، وتارة بالزيارة، وتارة بالسلام، وتارة

بطلاقة الوجه، وتارة بالنصح، وتارة برد الظلم، وتارة بالعفو والصفح وغير ذلك من أنواع الصلة على حسب القدرة والحاجة والمصلحة.

ومنها الإحسان إلى الجار واليتامى والمساكين والإحسان إلى عامة الناس، وفي بذل الإحسان للناس ثواب معجل في الدنيا، إحساناً من الله تعالى للعبد، غير الثواب المدخر له في الآخرة، دل على ذلك قول النبي ﷺ: «**من نفَّس عن مؤمن كُربة من كُرب الدنيا نفَّس الله عنه كُربة من كُرب يوم القيامة، ومن يسَّر على معسر يسَّر الله عليه في الدنيا والآخرة، ومن ستر مسلماً ستره الله في الدنيا والآخرة، والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه...**» (رواه مسلم).

وقوله ﷺ: «**المعروف إلى الناس يقي صاحبها مصارع السوء والآفات والهلكات، وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة**» (صحيح الجامع).

وقوله ﷺ: «**صنائع المعروف تقي مصارع السوء، وصدقة السر تطفئ غضب الرب، وصلة الرحم تزيد في العمر**» (صحيح الترغيب).

ومنها الإحسان في القول وهو قول أنفع الكلام، الكلام اللين، والقول المعروف، ومنه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بالمعروف، والحلم، والعفو، والصفح، فجميع هذه الأفعال من القول الحسن، حيث أمر الله صراحة بالقول الحسن في قوله تعالى: ﴿وَقُولُواْ لِلنَّاسِ حُسْنًا﴾ (البقرة: ٨٣)، والإحسان في العمل بإتقان العمل، وفعله خالصاً كاملاً لله.

وجميع أعمال الإحسان وصوره تصب في الإحسان إلى النفس، فالمحسن بوالديه محسن لنفسه ومن يُحسن للفقير واليتيم والمحتاج محسن كذلك لنفسه، ومن يحسن بأي وجه من وجهوه الإحسان فلنفسه، حيث قال الله تعالى: ﴿إِنْ أَحْسَنتُمْ أَحْسَنتُمْ لِأَنفُسِكُمْ ۖ وَإِنْ أَسَأْتُمْ فَلَهَا ۚ﴾ (الإسراء: ٧).

قاطعني صاحبي:

- لنرجع إلى الآية من سورة الرحمن، فهي محور حديثنا لأنها تثبت سنة من السنن الإلهية.. مع جميع خلقه مؤمنهم وكافرهم..

- لك ذلك..

قال تعالى: ﴿هَلْ جَزَآءُ ٱلْإِحْسَٰنِ إِلَّا ٱلْإِحْسَٰنُ ﴿٦٠﴾﴾ (الرحمن)، هذه الآية جاءت خاتمة للجزاء المعد عند الله تعالى للمقربين من عباده المؤمنين، وهم أهل الإحسان الذين يخشونه بالغيب، كما افتتح ذكرهم بقوله تعالى: ﴿وَلِمَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ جَنَّتَانِ ﴿٤٦﴾﴾ (الرحمن)، ولكي يكتمل جزاء المحسن عند الله تعالى، فيجب عليه أن لا يرجو على إحسانه مكافأة، ولا ينتظر عليه ثناء، وإنما يرجو به وجه الله تعالى والدار الآخرة، والمحسن في إحسانه، إما أن يريد الدنيا، كإحسان الكافر والمنافق، فهؤلاء ينالون جزاء إحسانهم في الدنيا، وليس لهم في الآخرة نصيب، كما قال الله تعالى:

﴿مَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلْءَاخِرَةِ نَزِدْ لَهُۥ فِى حَرْثِهِۦ ۖ وَمَن كَانَ يُرِيدُ حَرْثَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَا لَهُۥ فِى ٱلْءَاخِرَةِ مِن نَّصِيبٍ ﴿٢٠﴾﴾ (الشورى).

وعن عَدي بن حاتم رضي الله عنه قال: قلت: «**يا رسول الله، إن أبي**

كان يصل الرحم، ويفعل ويفعل، فهل له في ذلك، يعني من أجر؟ قال: «إن أباك طلب أمراً فأصابه» (رواه أحمد) و(حسّنه الأرناؤوط)، وإذا أراد المحسن بإحسانه رضا الله تعالى والدار الآخرة، أحسن الله تعالى إليه في الدنيا وفي الآخرة، وقد يكون إحسان الله تعالى للعبد أسرع مما يظن.

❋❋❋❋❋

العاصي.. يُجزى نقيض قصده!

إلتقيت صاحبي بعد انقطاع أسبوع.. قضاها في رحلة عمرة.. وعادته أن يذهب براً.. يتوقف أحياناً في المدينة.. وأحياناً في القصيم. وأحياناً في حفر الباطن..

بعد التحية.. والأسئلة.. أهداني.. تمراً.. و(كليجة).. سعودية.. شكرته.. وعلّقت مازحاً..

- هل تعلم أن «الكليجة» دخلت ضمن قائمة اليونسكو للأكلات الشعبية!!

- معلومة جديدة!!

- أثناء مكوثي في الحرم المكي.. بحثت عن (سنة الله).. في القرآن.. وجدت أنها وردت بتصريفاتها.. ست عشرة مرة.. ولكن مرة واحدة لم توصف.. بعدم التبديل ولا التحويل.. وهي في قوله تعالى..

﴿ مَّا كَانَ عَلَى ٱلنَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ ٱللَّهُ لَهُۥ ۖ سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۚ وَكَانَ أَمْرُ ٱللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾ ﴾ (الأحزاب).

- ملاحظة جيدة.. كنت قد قرأت تفسيرها.. أثناء بحثي عن السنن الإلهية.. والجواب أن هذه الآية نزلت لبيان (إباحة زواج الرجل من زوجة متبناه إذا قضوا منهن وطراً).. فتزوج النبي ﷺ زينب بنت جحش بعد أن فارقها زيد بن حارثة (وكان يسمى قبل ذلك زيد بن محمد)، وحيث لا

نبي بعد رسول الله محمد ﷺ.. لم توصف هذه السنة بعدم التبديل ولا التحويل، بل وصفت بقوله تعالى: ﴿سُنَّةَ ٱللَّهِ فِى ٱلَّذِينَ خَلَوْا۟ مِن قَبْلُ ۖ﴾!!

- لقد أشفيت غليلي.. وأرحت ذهني في هذه المسألة..

تابعت حديثي..

- ومن السنن الإلهية التي يغفل عنها كثير من الناس (أن العاصي يعامل بعكس مراده.. ونقيض قصده)..

- هذا لغز آخر.. يحتاج إلى بيان..

- إليك البيان بإذن الله.. في قصة أصحاب الجنة التي وردت في سورة القلم من الآية (١٧ - ٣٣).. يقول تعالى..

﴿إِنَّا بَلَوْنَٰهُمْ كَمَا بَلَوْنَآ أَصْحَٰبَ ٱلْجَنَّةِ إِذْ أَقْسَمُوا۟ لَيَصْرِمُنَّهَا مُصْبِحِينَ ﴿١٧﴾ وَلَا يَسْتَثْنُونَ ﴿١٨﴾ فَطَافَ عَلَيْهَا طَآئِفٌ مِّن رَّبِّكَ وَهُمْ نَآئِمُونَ ﴿١٩﴾ فَأَصْبَحَتْ كَٱلصَّرِيمِ ﴿٢٠﴾ فَتَنَادَوْا۟ مُصْبِحِينَ ﴿٢١﴾ أَنِ ٱغْدُوا۟ عَلَىٰ حَرْثِكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰرِمِينَ ﴿٢٢﴾ فَٱنطَلَقُوا۟ وَهُمْ يَتَخَٰفَتُونَ ﴿٢٣﴾ أَن لَّا يَدْخُلَنَّهَا ٱلْيَوْمَ عَلَيْكُم مِّسْكِينٌ ﴿٢٤﴾ وَغَدَوْا۟ عَلَىٰ حَرْدٍ قَٰدِرِينَ ﴿٢٥﴾ فَلَمَّا رَأَوْهَا قَالُوٓا۟ إِنَّا لَضَآلُّونَ ﴿٢٦﴾ بَلْ نَحْنُ مَحْرُومُونَ ﴿٢٧﴾ قَالَ أَوْسَطُهُمْ أَلَمْ أَقُل لَّكُمْ لَوْلَا تُسَبِّحُونَ ﴿٢٨﴾ قَالُوا۟ سُبْحَٰنَ رَبِّنَآ إِنَّا كُنَّا ظَٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَأَقْبَلَ بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ يَتَلَٰوَمُونَ ﴿٣٠﴾ قَالُوا۟ يَٰوَيْلَنَآ إِنَّا كُنَّا طَٰغِينَ ﴿٣١﴾ عَسَىٰ رَبُّنَآ أَن يُبْدِلَنَا خَيْرًا مِّنْهَآ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا رَٰغِبُونَ ﴿٣٢﴾ كَذَٰلِكَ ٱلْعَذَابُ ۖ وَلَعَذَابُ ٱلْءَاخِرَةِ أَكْبَرُ ۚ لَوْ كَانُوا۟ يَعْلَمُونَ ﴿٣٣﴾﴾ (القلم).

فقد أقسموا.. ألا يعطوا مسكيناً شيئاً من بستانهم الكبير.. فعاقبهم الله تعالى.. وأصبحت جنتهم كالصريم.. احترقت فصارت كالليل الأسود، لدرجة أنهم لم يتعرفوا عليها.. بادئ الأمر.. وفي الحديث: (عن أبي هريرة

أن النبي ﷺ قال: «**ما من يوم يصبح العباد فيه إلا ملكان ينزلان فيقول أحدهم: اللهم أعط منفقاً خلفاً، ويقول الآخر: اللهم أعط ممسكاً تلفاً**» (متفق عليه).

- وهذا في الدنيا..

- نعم وربما يكون العذاب في الآخرة فيتحسر العاصي على عمله.. مثل جزاء المتكبر.. في الحديث عن عمرو بن شعيب عن أبيه عن جده أن النبي ﷺ قال: «**يحشر المتكبرون يوم القيامة أمثال الذرّ في صور الرجال يغشاهم الذل من كل مكان يساقون إلى سجن في جهنم يقال له (بولس).. تعلوهم نار الأنيار يسقون من عصارة أهل النار طينة الخبال**». (صحيح الترغيب)

- أعوذ بالله من عذاب الله.. هكذا كان ردة فعل صاحبي الفورية..

- وعكس ذلك ينال المحسن أعظم مما عمل.. من جنس إحسانه..

- دعنا نكمل في (جزاء العاصي عكس مراده).

- قس على ذلك كل معصية.. من يشرب الخمر.. ينال من الأذى الصحي والنفسي والاجتماعي.. ما لا علاج له.. ومن يقع في (الزنا) يناله من الذل والمرض والمهانة.. ومن يتعامل بالربا.. ومن مكر بالناس سوءاً.. ﴿وَلَا يَحِيقُ ٱلْمَكْرُ ٱلسَّيِّئُ إِلَّا بِأَهْلِهِۦ﴾ (فاطر: ٤٣)... إن (المعصية.. مكلفة.. متعبة).. ينفق العاصي أمواله.. يريد أن يستمتع ولا ينال إلا التعب والمرض والإرهاق.. في حياته الدنيا.. فضلاً عما ينتظره في الآخرة:

﴿ وَمَنْ أَعْرَضَ عَن ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُۥ مَعِيشَةً ضَنكًا وَنَحْشُرُهُۥ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ أَعْمَىٰ ﴿١٢٤﴾ ﴾ (طه).

الضنك: الشدة والضيق والشقاء، هذه (سنة إلهية) .. وعلى النقيض من كان في طاعة الله.. وإن كان فقيراً... وإن كان مبتلى فإن الله وصف حياته:

﴿ مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾ ﴾ (النحل).

قال ابن عباس: السعادة – الرزق الطيب الحلال – القناعة.. ومن ذلك أن القاتل لا يرث.. قال ابن تيمية..

(وأما الوارث إذا قتل مورثه عمداً، فإنه لا يرث شيئاً من ماله باتفاق الأئمة).

❋❋❋❋❋

من ترك شيئاً لله عوَّضه الله خيراً منه

إقترح عليَّ صاحبي أن نؤدي صلاة الجمعة في مسجد جديد، لم نجمع فيه من قبل.

– معظم المساجد يدخل الخطيب وقت الصلاة، يصعد المنبر، يقرأ الخطبة التي وُضعت له ثم يصلي وينصرف، وإذا اجتهد اجتهد في طريقة الإلقاء، من رفع النبرة وخفضها.

ابتسمت معلقا على ملاحظة صاحبي.

– وماذا في ذلك؟ عادةً الخطب الجاهزة تكون مفيدة لجمهور المسلمين وفيها من العلم والموعظة ما ينفع العامة.

لم يعقب صاحبي، فسألته:

– وماذا عن خطبة اليوم؟ ماذا سيكون موضوعها؟

– خطبة الوزارة الرسمية (كلمة التوحيد).

– موضوع جميل، ومهم، ونافع، يحتاجه العامة.

– لنر كيف سيلقيها الخطيب.

– بعد الصلاة، وكان موضوع الخطبة مختلفاً عن توقع صاحبي، تناول الخطيب (سنة إلهية فيمن يترك شيئا لله).

– ما رأيك بالخطبة؟

– بصراحة، استمتعت بها، على غير العادة، لقد أجاد في كل الجوانب،

الموضوع، والأداء، والفائدة، وتخريج الأحاديث، ولاسيما الحديث عن سهل بن معاذ بن أنس الجهني عن أبيه، أن رسول الله ﷺ قال: «**من ترك اللباس تواضعاً لله وهو يقدر عليه، دعاه الله يوم القيامة على رؤوس الخلائق، حتى يخيره من أي حلل الإيمان شاء يلبسها**» (صحيح الترمذي)؛ فقد يظن المرء أن هذا النص لا يتفق مع قول الله تعالى:

﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ ٱللَّهِ ٱلَّتِيٓ أَخْرَجَ لِعِبَادِهِۦ وَٱلطَّيِّبَٰتِ مِنَ ٱلرِّزْقِ ۚ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ ٱلْـَٔايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٣٢﴾﴾ (الأعراف).

وقول النبي ﷺ: «**إذا آتاك الله مالاً فَلْيُرَ أثر نعمة الله عليك وكرامته**» (صحيح الجامع).

ولكن الشيخ -جزاه الله خيرا- بين أن ترك اللباس باهظ الثمن، إنما من باب التواضع لله، وإلا فالثياب الحسنة من السنة.

بعد أن خرجنا من الزحمة وسلكنا طريقنا نحو المجمع الذي اتفقنا أن نتناول الغداء فيه، عقبت على مقالته.

- أجمل ما في الخطبة بالنسبة لي، هي بيان سنة إلهية من السنن الثابتة الدائمة، وهي أن «من ترك شيئاً لله عوضه الله خيراً مما ترك».

هذه قاعدة عامة، وقانون دائم، يدفع العبد أن يترك المحرمات أولاً، يريد وجه الله، ويترك المباحات يريد وجه الله، وهنا يحضرني حديث معاذ بن أنس عن النبي ﷺ قال: «**من كظم غيظاً وهو قادر على أن ينفذه، دعاه الله**

-سبحانه وتعالى- على رؤوس الخلائق يوم القيامة حتى يخيره من الحور العين ما شاء» (رواه الترمذي وأبو داود - صحيح الترغيب).

وأحسن الخطيب بذكره قصة صهيب الرومي - رضي الله عنه - عندما أراد الهجرة من مكة وتبعه نفر من قريش حتى أدركوه ليرجعوه، فعرض عليهم ماله كله الذي في مكة على أن يتركوه يلحق برسول الله ﷺ، ففعلوا، فلما رآه النبي ﷺ قال له مبشراً: «**ربح البيع يا أبا يحيى، ربح البيع يا أبا يحيى**» وفيه نزل قول الله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَشْرِى نَفْسَهُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ رَءُوفٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿٢٠٧﴾﴾ (البقرة).

وحديث النبي ﷺ: «**ما نقصت صدقة من مال، وما زاد الله عبداً بعفو إلا عزاً، ومن تواضع لله عز وجل إلا رفعه**» (مسلم).

وأصرح من ذلك حديث النبي ﷺ: «**إنك لن تدع شيئاً لله عز وجل إلا بدَّلك الله به ما هو خير لك منه**» (السلسلة الصحيحة)، قال ابن القيم رحمه الله: «وقوله من ترك شيئاً لله عوَّضه الله خيراً منه: حق، والعوض أنواع مختلفة، وأجلّ ما يعوض به: الأنس بالله ومحبته وطمأنينة القلب به، وقوته ونشاطه وفرحه ورضاه عن ربه تعالى» (الفوائد).

تابعت كلام صاحبي.

- هكذا هو الشيخ ابن القيم رحمه الله يتعامل مع القلوب والإيمانيات، ولم يذكر أن العوض يكون أيضاً في الدنيا، وقد ذكر هو ذاته أمثلة من العوض في (روضة المحبين)، يقول: «لما عقر سليمان بن داود -عليهما

السلام- الخيل التي شغلته عن صلاة العصر حتى غابت الشمس، عوضه الله بالريح، تسير به، غُدُوها شهر ورواحها شهر: (أي يقطع بها في الغداة مسافة ما يقطعه بالخيل شهراً كاملاً، وكذلك في العصر!)» ويتابع ابن القيم أمثلته: «ولما ترك المهاجرون ديارهم لله، وأوطانهم التي هي أحب شيء إليهم أعاضهم الله أن فتح عليهم الدنيا وملكهم شرق الأرض وغربها». هذه سنة إلهية لا تتبدل ولا تتعطل أبداً.

أدركنا المكان الذي نريد، وذلك أن الطريق كانت سالكة والمسافة قصيرة. تابعنا حديثنا.

- الظاهر أن معظم العوض يكون في الآخرة كما قال ابن دقيق العيد رحمه الله: «فمن المعلوم أن جميع ما في الدنيا، لا يساوي ذرة مما في الجنة» فتح الباري . ومن الأدلة أن العوض في الآخرة أضمن، حديث أبي هريرة رضي الله عنه قال رسول الله ﷺ: «**من سره أن يسقيه الله الخمر في الآخرة فليتركها في الدنيا، ومن سره أن يكسوه الله الحرير في الآخرة فليتركها في الدنيا**» (صحيح الترغيب)، ومما يذكر في هذا الباب قصة زواج والد عبدالله بن المبارك.. الإمام المعروف.

- فقد كان المبارك رقيقاً فأعتقه سيده، وعمل أجيراً عند صاحب بستان، وفي يوم خرج صاحب البستان ومعه نفر من أصحابه إلى البستان، وأمر المبارك أن يحضر لهم رماناً حلواً، فجمع لهم فلما ذاقه قال للمبارك: أنت ما تعرف الحلو من الحامض؟

فقال المبارك: لم تأذن لي أن آكل حتى أعرف الحلو من الحامض؛ فظن

صاحب البستان أن المبارك يخدعه، وقال له: أنت منذ كذا وكذا سنة تحرس البستان وتقول هذا؟

ثم سأل بعض الجيران عنه فشهدوا له بالخير والصلاح وأنهم ما عرفوا أنه أكل رمانة واحدة، فجاءه صاحب البستان وقال له إذا أردت أن أزوج ابنتي فممن أزوجها؟

فقال المبارك : إن اليهود يزوجون على المال، والنصارى يزوجون على الجمال، والمؤمنين يزوجون على التقوى والدين فانظر من أي الناس أنت؟

فقال: وهل أجد لابنتي من هو خير منك؟ وعرضها عليه فقبل المبارك وبنى بها ورزق منها أولاداً، كان منهم عبدالله بن المبارك رحمه الله.

- ختم صاحبي كلامه.. أنا أقسم بالله وأجزم يقيناً دون شك أن «من ترك شيئا لله عوضه الله خيرا منه»، على العبد فقط أن يكون صادقاً مع الله، ويصلح نيته، وأن يترك هذه المنهيات يريد رضا الله، ورغبة فيما عند الله، وسوف ينال ما يريد، دون أدنى ريب.

❋❋❋❋❋

من آثر الحق.. أرضاه الله

- كلمة «سنن» بتصريفاتها.. وردت في ست صيغ.. (سنة الله).. (سنتنا) (سنة من قد أرسلنا) (سنن الذين من قبلكم) (سنة الأولين) (سنن).. فأضيفت مرة إلى رب العزة.. (سنة الله) ومرة إلى من جاء بها وهم المرسلون (سنة من قد أرسلنا)، ومرة ثالثة إلى من خوطب بها وهم أقوام الرسل أو الأولون (سنن الذين من قبلكم) (سنة الأولين) ووردت في خمسة مواضع بتأكيد أنها لا تبديل لها ولا تحويل..

- تصنيف جميل..

- وتعلم أن السنن الإلهية يمكن أن تأتي بلفظ..

(تأذن ربكم).. و(كتب الله).. (وحقاً علينا).. و(عاقبة المتقين)، و(عاقبة الظالمين)... وغيرها من الصيغ التي تحتاج إلى تتبع في كتاب الله وسنة النبي ﷺ.

كنت وصاحبي... في طريقنا لتهنئة صديق لنا بمناسبة زواج ابنه..

- آمل ألا نصادف زحاماً بشرياً كما حصل الأسبوع الفائت في حفل زفاف ابن صديقنا مشاري..

- لنحتسب الأجر.. والتيسير من عند الله..

- ماذا عن سنة الله فيمن آثر الحق على الخلق؟!

يقول ابن القيم: «لقد جرت سنة الله التي لا تبديل لها أن من آثر مرضاة الخلق على مرضاة الحق أن يسخط عليه من آثر رضاه ويخذله من جهته

ويجعل محنته على يديه فيعود حامده ذاماً ، ومن آثر مرضاته ساخطاً فلا على مقصوده منهم حصل ولا إلى ثواب مرضاة ربه وصل ومن آثر رضا الله كفاه الله مؤنة غضب الخلق، وإذا آثر رضاهم لم يكفوه مؤنة غضب الله عليه، مع أن رضا الخلق لا مقدور ولا مأمور ولا مأثور فهو مستحيل» (مدارج السالكين (٢/ ٣٠٠).

والمؤْثرُ لرضا الله متصدٍّ لمعاداة الخلق وأذاهم وسعيهم في إتلافه ولا بد، هذه (سنة الله) في خلقه وإلا فما ذنب الأنبياء والرسل والذين يأمرون بالقسط من الناس والقائمين بدين الله الذابِّين عن كتابه وسنة رسوله عندهم، فمن آثر رضا الله فلا بد أن يعاديه رذالة العامة وسقطهم وجهالهم، وأهل البدع والفجور منهم، وأهل الرئاسات الباطلة وكل من يخالف هديه:

﴿يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَاللَّهُ وَرَسُولُهُ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا مُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾﴾ (التوبة).

كتب معاوية بن أبي سفيان – رضي الله عنهما – إلى عائشة أم المؤمنين – رضي الله عنها – أن اكتبي إليَّ كتاباً توصيني فيه، ولا تكثري عليَّ، فكتبتْ عائشة إلى معاوية: سلام عليك. أما بعد، فإني سمعت رسول الله ﷺ يقول: «**من التمس رضاء الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس، ومن التمس رضاء الناس بسخط الله وكله الله إلى الناس. والسلام عليك**» (رواه الترمذي وصححه الألباني، وفي رواية ابن حبان في صحيحه: «**من التمس رضا الله بسخط الناس رضي الله تعالى عنه وأرضى الناس عنه، ومن التمس رضا الناس بسخط الله، سخط الله عليه وأسخط عليه الناس**».

أدركنا الموقع الذي نريد.. بدا المكان مزدحماً ازدحاماً شديداً.. نظر إليَّ صاحبي أن نرجع..

- بل احتسِب ولنبارك لصاحبنا..

اضطررنا أن نوقف مركبتنا بعيداً نسبياً لكثرة الحضور... كان هناك طابور طويل من المهنئين.. لم نقف معهم.. دخلنا القاعة.. لمحنا شقيق صاحبنا.. فأخذ بيدينا.. لنهنئ صاحبنا.. تناولنا شيئاً من المقبلات وعدنا إلى مركبتنا.

- لقد يسَّر الله لنا. والحمد لله.. لنتابع حديثنا..

- نعم.. كثيراً ما يضطر العبد أن يختار.. بين أمرين.. فالواجب أن يختار ما فيه رضا الله عز وجل... وإذا كان الأمران مباحين.. اختار أيسرهما كما في الحديث.. عن عروة عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها قالت: «**ما خُيّر النبي ﷺ بين أمرين إلا اختار أيسرهما ما لم يأثم فإذا كان الإثم كان أبعدهما منه.. واللهِ ما انتقم لنفسه في شيء يؤتى إليه قط، حتى تنتهك حرمات الله.. فينتقم لله**» (متفق عليه، وهذا لفظ البخاري)..

- إن إيثار الحق على الخلق.. يورث الطمأنينة.. والفوز في الدنيا والآخرة.. أي شيء أعظم من رضا الله عن العبد.. ثم بعد ذلك ينال محبة الله... إن كان هذا ديدنه... (إيثار الحق على الخلق).. ومن نال حب الله أحبه أهل السماوات وأهل الأرض.. رغماً عنهم.

قال ابن القيم: «وسنة الله في خلقه أن يرفع من يقدم الحق على الخلق ويذلهم له، بحسب صبره وتقواه وتوكله وإخلاصه، وإذا كان لا بد من

الألم والعذاب، فذلك في الله وفي مرضاته، ومتابعة رسله، أولى وأنفع منه في الناس، ورضائهم، وتحصيل مراداتهم، فإذا تصور العبد أجل ذلك البلاء وانقطاعه، وأجل لقاء المبتلي سبحانه هان عليه ما هو فيه» (شفاء العليل ١/ ٢٤٦).

لقد حضرتني للتو الآية من سورة الأحزاب.. في قصة أم المؤمنين زينب بنت جحش الأسدية.. ابنة عمة النبي ﷺ: ﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ ٱلْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ ۗ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَٰلًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾﴾ (الأحزاب).

يقول ابن عباس: «انطلق رسول الله ﷺ يخطب على فتاه زيد بن حارثة فدخل على زينب بنت جحش الأسدية فخطبها.. قالت: رضيتَه لي يا رسول الله منكحاً؟ قال: نعم، قالت: إذن لا أعصي رسول الله.. قد أنكحته نفسي...». ومكثتْ مع زيد سنة واحدة، ولم يتوافقا فطلقها.. ثم تزوجها رسول الله ﷺ.. بأمر الله.. فعوضها الله.. لطاعتها لأمر الله أن زوجها بخير البشر لتكون أمًّا للمؤمنين وكانت تفتخر بعد ذلك على نساء النبي ﷺ.تقول... زوجكن أهاليكن وزوجني الله من فوق سبع سموات» (البخاري).

- كلام جميل.. والعكس صحيح.. اسمع ما يقوله الإمام ابن القيم:

ما أكثر ما يُقدم العبد ما يحبه هو ويهواه أو يحبه كبيره أو شيخه أو أهله على ما يحبه الله تعالى، فهذا لم تتقدم محبة الله تعالى في قلبه جميع المحاب. وسنة الله تعالى فيمن هذا شأنه أن يُنكد عليه محابه ويُنغصها

عليه، فلا ينال شيئاً منها إلا بنكد وتنغيص، جزاءً له على إيثاره هواه وهوى من يعظمه من الخلق أو يحبه على محبة الله تعالى.. قد قضى الله عز وجل قضاء لا يرد ولا يدفع، أن من أحب شيئاً سواه عذبه به ولا بد، وأن من خاف غيره سلطه عليه، وأن من اشتغل بشيء غيره كان شؤماً عليه، ومن آثر غيره لم يبارك له فيه، ومن أرضى غيره بسخطه أسخطه عليه ولا بد. (الوابل الصيب ١/ ١٥).

❋❋❋❋❋

يَغْضَبُ اللهُ... إذا تفشَّت الفاحشة

- أعلم أن من أسماء الله الحسنى (الحليم).. الذي لا يعجل العذاب على من يستحقه.. بل يمهل.. ويؤخّر بحلمه سبحانه.. وأعلم أيضاً حديث النبي ﷺ في الصحيحين: «**لما قضى الله الخلق كتب في كتابه فهو عنده فوق عرشه: إن رحمتي غلبت غضبي**»، وفي رواية: «**إن رحمتي سبقت غضبي**».. ولكني قرأت في (الجواب الكافي) لابن القيم: «وقد جرت سنة الله سبحانه في خلقه أنه عند ظهور الزنا يغضب الله سبحانه وتعالى ويشتد غضبه...» (١/ ١٤٤).

مما أدى إلى تساؤلات في ذهني.. لماذا الزنا؟

ولماذا لم يقل إذا ظهر الشرك... الذي هو أكبر من الزنا... بل أكبر الكبائر...

هكذا بدأ صاحبي حواره مع صديقنا (أبي يوسف).. أستاذ العقيدة في كلية الشريعة.. وكنا أربعة نفر...

- سؤال جميل.. وتساؤل مشروع.. ابتداءً قولك أن الشرك أكبر الكبائر حق.. وهو الذي يوجب غضب الله عز وجل على من يقع فيه.. كما في قوله عز وجل:

﴿ مَن كَفَرَ بِٱللَّهِ مِنۢ بَعۡدِ إِيمَٰنِهِۦٓ إِلَّا مَنۡ أُكۡرِهَ وَقَلۡبُهُۥ مُطۡمَئِنُّۢ بِٱلۡإِيمَٰنِ وَلَٰكِن مَّن شَرَحَ بِٱلۡكُفۡرِ صَدۡرٗا فَعَلَيۡهِمۡ غَضَبٞ مِّنَ ٱللَّهِ وَلَهُمۡ عَذَابٌ عَظِيمٞ ﴿١٠٦﴾ ﴾ (النحل).

وكذلك من يتولى يوم الزحف.. كما قال تعالى: ﴿ وَمَن يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُۥٓ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِّقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَىٰ فِئَةٍ فَقَدْ بَآءَ بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَمَأْوَىٰهُ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٦﴾ ﴾ (الأنفال).

وكذلك من يقتل مؤمناً متعمداً: ﴿ وَمَن يَقْتُلْ مُؤْمِنًا مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآؤُهُۥ جَهَنَّمُ خَٰلِدًا فِيهَا وَغَضِبَ ٱللَّهُ عَلَيْهِ وَلَعَنَهُۥ وَأَعَدَّ لَهُۥ عَذَابًا عَظِيمًا ﴿٩٣﴾ ﴾ (النساء).

ومع العلم أن الشرك الأكبر يوجب لصاحبه الخلود في النار في الآخرة، بينما الكبيرة فصاحبها أمره إلى المشيئة.

هذه الآيات ومثيلاتها.. تبين عذاب هذه الأصناف في الآخرة..

ولكن الشيخ ابن القيم عندما ذكر سنةً من سنن الله أراد أن تَفَشّي الزنا يؤدي إلى ظهور غضب الله في الدنيا، ولذلك تمام الجملة التي ذكرتها هو.. (ويشتد غضبه فلا بد أن يؤثّر غضبه في الأرض عقوبة.. قال عبد الله بن مسعود: ما ظهر الربا والزنا في قرية إلا أذن الله بإهلاكها).. هذا الذي أراد بيانه الشيخ أن هذه الفاحشة يظهر أثرها في الدنيا... ولذلك ورد في مسألة المتلاعنين (الزوج يتهم زوجته بالزنا).. ﴿ وَٱلْخَٰمِسَةَ أَنَّ غَضَبَ ٱللَّهِ عَلَيْهَآ إِن كَانَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿٩﴾ ﴾ (النور).. وذلك في الدنيا قبل الآخرة!!

أعجبني إسهاب صاحبنا أستاذ العقيدة..

تابع حديثه الماتع..

- وكلمة (غضب) بتصريفاتها وردت أربعاً وعشرين (٢٤) مرة في كتاب

الله.. ومن غضب عليه الله عز وجل هلك.. كما قال سبحانه ﴿وَمَن يَحْلِلْ عَلَيْهِ غَضَبِي فَقَدْ هَوَىٰ ﴿٨١﴾﴾ (طه).. وذلك في الآخرة وإن عاش عيشة الملوك في الدنيا.. وظهر غضبه على الأمم السابقة لأمة محمد ﷺ.. في الدنيا فأهلكهم.. كما حصل مع عاد وثمود وقوم لوط وفرعون وهامان وقارون.

أخبر الله عن هؤلاء فقال: ﴿قَالَ قَدْ وَقَعَ عَلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ رِجْسٌ وَغَضَبٌ﴾ (الأعراف: ٧١).. أي عذاب وغضب.

قاطعه صاحبي..

– آسف على المقاطعة (دكتور).. ولكن أليست السنن الإلهية.. ثابتة دائمة.. نافذة.. لا تتبدل ولا تتحول؟!

– نعم.. وأظنك تريد أن تسأل أن هناك دول ومجتمعات يتفشى فيها الزنا.. ولم ينزل عليها غضب الله بالعذاب في الدنيا.

أليس كذلك؟

– بلى.. كأنك تقرأ أفكاري..

– لا تنس أن سنن الله لا تقاس بأيامنا وأعمارنا.. بل من أسباب غفلة الناس عن السنن الإلهية.. أنها قد تتأخر مئات السنين.. كما قال تعالى: ﴿وَيَسْتَعْجِلُونَكَ بِالْعَذَابِ وَلَن يُخْلِفَ اللَّهُ وَعْدَهُ ۚ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ ﴿٤٧﴾﴾ (الحج).

– أظن أنني بينت جزءاً من ذلك، ولكن دعني أقرأ لك شيئاً مما ذكره ابن القيم جواباً على سؤالك.

قال الإمام ابن القيم: «ويكفي في قبح الزنى أن الله سبحانه وتعالى مع كمال رحمته شرع فيه أفحش القتلات وأصعبها وأفضحها وأمر أن يشهد عباده المؤمنون تعذيب فاعله».

وقد جمع سبحانه بين الزنى والشرك في قوله: ﴿ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوْ مُشْرِكَةً وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوْ مُشْرِكٌ ۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٣﴾﴾ (النور).

وعن عبد الله بن مسعود، عن أبيه قال: إذا ظهر الزنى والربا في قرية أذن الله عز وجل بهلاكها.

ذلك أن مفسدة الزنا مناقضة لصلاح العالم وفي هذه الكبيرة خراب الدنيا والدين والله لا يحب الفساد.

وخصَّ سبحانه حدَّ الزنى من بين الحدود بثلاث خصائص: أحدها: القتل فيه أشنع القتلات.

الثاني: أنه نهى عباده أن تأخذهم بالزناة رأفة في دينه، بحيث تمنعهم من إقامة الحد عليهم، فإنه سبحانه من رأفته ورحمته بهم شرع هذه العقوبة، فهو أرحم منكم ولم تمنعه رحمته من أمره بهذه العقوبة، فلا يمنعكم أنتم ما يقوم بقلوبكم من الرأفة من إقامة أمره. وهذا وإن كان عاماً في سائر الحدود، ولكن ذُكِر في حد الزنا خاصة، لشدة الحاجة إلى ذكره، فإن الناس لا يجدون في قلوبهم من الغلظة والقسوة على الزاني ما يجدونه على السارق والقاذف وشارب الخمر، وأيضاً فإن هذا ذنب غالب ما يقع مع التراضي من الجانبين، ولا يقع فيه من العدوان والظلم والاغتصاب ما ينفّر

النفوس منه، وفيها شهوة غالبة له، فتصوِّر ذلك لنفسها، فيقوم بها رحمة تمنع إقامة الحد.

الثالث: أنه سبحانه أمر أن يكون حدُّهما بمشهد من المؤمنين، فلا يكون خلوة حيث لا يراهما أحد، وذلك أبلغ في مصلحة الحد وحكمة الزجر.

وحدُّ الزاني المحصن مشتق من عقوبة الله سبحانه لقوم لوط بالقذف بالحجارة، وذلك لاشتراك الزنى واللواط في الفحش، وفي كل منهما فساد يناقض حكمة الله في خلقه وأمره.

❋❋❋❋❋

سنة الله في (نصر المظلوم)

جلس بجانبي بانتظار صلاة الفجر... شاب لم أره من قبل في مسجدنا.. لم يتجاوز العشرين من عمره.. بدا متوتراً.. كتب رسالة في هاتفه النقال.. أراني إياها.. (أريد أن أتحدث إليك بعد الصلاة)!.. صافحته.. موافقاً..

سألته إن كان يريد الجلوس في المسجد أو خارجه أو في المنزل.. طلب مني أن نتحدث خارج المسجد.. ذهب الجميع.. سألته..

- ما اسمك...؟

- لا يهم أن تعرف اسمي.. ولكن أريد أن أتحدث إليك.. ولا أعلم السبب لأنني لا أدري من أين أبدأ.. وماذا أقول.. وماذا أريد.. والدي.. يضربني.. ويحبسني كل يوم في البيت.. ويأخذ هاتفي لحظة دخولي إلى البيت.. ويضرب إخواني.. نحن سبعة، خمس بنات وولدان.. أختي الكبرى متزوجة.. ولكن والدي أخذ بطاقة البنك الخاصة بها.. ويتحكم بمصروفها كما يشاء دون علم زوجها.. وأختي الثانية يستولي على راتبها كله.. ونحن لا زلنا في المراحل الدراسية.. أنا في السنة النهائية للدراسة الثانوية فكرت بالهروب من البيت.

تركته يسترسل في حديثه.. وأنا في صدمة مما أسمع..

- أعلم أنك ستقول لماذا لم تخبر أحد أعمامك أو أخوالك... أو أياً من أقاربك.. ذلك أن والدي يتظاهر أمام الجميع أنه «أب مثالي».. ويهددنا دائماً أنه إذا بلغه أن أحداً منَّا اشتكاه عند أقاربنا أن يحرق علينا البيت!!

بعد أن يخنقنا لتبدو أنها قضاء وقدر.. ويمسك والدتنا ويضربها بعنف أمام أعيننا وذات مرة.. وضع سكيناً حامية على رقبتها.. وكوى بها أجزاء من جسدها.

– راودتني مشاعر وأفكار أن هذا الشاب يبالغ في وصف ما يفعله والده، بدا لي من غير المنطقي أن يفعل أب ما يصفه.. ولكن كان صادقاً.. يمسح دموعه بين فترة وأخرى.. ويتنفس بصعوبة.. أثناء حديثه..

سألته..

– وكيف استطعت أن تأتي لصلاة الفجر..

– ذهب والدي البارحة مع أصدقائه في رحلة بحرية.. وسيمضي اليوم كله خارج المنزل.. استأذنت والدتي أن أصلي الفجر وأتيت إلى مسجدكم.. لأنني أحرص أن أصلي الجمعة هنا..

تابع حديثه..

– أعلم أنك ربما تظن أنني أبالغ في حديثي عن والدي.. ولكني أقسم بالله أن هذا (غيض من فيض)... والمصيبة أنه يظهر أمام الناس بوجه آخر.. بل ويفتح ديوانه يوماً في الأسبوع ليستقبل الناس!!

قسماً بالله إني أعرف ذنب عقوق الوالدين.. وأحفظ أكثر من والدي من كتاب الله.. ولكنني أشعر أنني لا أستطيع الاستمرار بالحياة معهم.. ولا أعرف أين أذهب ولمن أشكو...

– أنت في الصف الثاني عشر؟

- نعم.

- إذن هي سنة واحدة وتنهي الثانوية وتبدأ الجامعة..

- ولن يتغير شيء.. سيبقى في تسلطه.. والاستحواذ على إعانتي الجامعية.. أو مرتبي إذا أن التحقت بأي كلية.. ولن يسمح لي بالسفر لإكمال دراستي.. فكرت أن أشكوه إلى الشرطة.. أو القضاء.. لا.. أدري..

كنت أحاول أن أواسيه.. وضعت يدي على منكبه.. أربت على كتفه..

- ابتداء.. لا تنس أن الله مطلع على تفاصيل أحوالكم الظاهرة والباطنة.. وأن الله (يسمع ويرى).. وأن العبد يلجأ إلى الله فيكفيه الله عز وجل ﴿**أليس الله بكاف عبده**﴾.. ويقول: (حسبي الله ونعم الوكيل).

واعلم يا بني.. أن سنة الله أنه لا يحب الظلم.. وأنه ينصر المظلوم دون أدنى شك: «**يا عبادي إني حرمت الظلم على نفسي وجعلته بينكم محرماً فلا تظالموا**» (مسلم).

وفي الحديث: «**اتقوا دعوة المظلوم فإنها تُحمل فوق الغمام يقول الله: وعزتي وجلالي لأنصرنك ولو بعد حين**» (صحيح الترغيب).. رب العزة يقسم أنه ينصر المظلوم.. فكيف إذا كان الظالم هو (الأب) الذي من المفروض أن يكون مصدر (الأمن).. والطمأنينة للأسرة كلها... يا بني.. يبدو أنك تعلم ما الذي تستطيع أن تفعله.. وما لا تستطيع... يلجأ المرء للأقارب.. ولكن يبدو أن والدك أغلق عليكم كل الأبواب... إلا باباً واحداً لا يستطيع أحد أن يغلقه... وهو (باب السماء)... أكثر من الدعاء.. وحذار

أن تقع في الخطأ فتسبب ضرراً أكبر لأسرتك... أخلص في دعاء الله عز وجل.. واستعن بالله.. وكن على ثقة بالله لا يخالجها أدنى شك بأن الله (ينصر المظلوم).. ويستجيب دعاءه.. وسترى أن الظلم عاقبته وخيمة على الظالم في الدنيا قبل الآخرة.. وهو في الآخرة ظلمات شديدة... وإذا كنت شخصياً أستطيع عمل أي شيء لمساعدتك.. أخبرني...

- لا أدري ماذا أقول... ولكن الجميع في منزلنا.. والدتي.. وأخي وأخواتي.. كلنا في حيرة من أمرنا.. طلبت من والدتي أن تخبر أخوالي.. وهي خائفة من تهديد والدي... ولكن كما قلت يا شيخ.. نلجأ إلى الله.. ولا أدري كيف يدعو ابن على أبيه.. وكيف يسأل الابن ربه أن يأخذ أباه!!!.. كثيراً ما أدعو (اللهم إنك تعلم ضعف حالنا وقهر والدنا لنا.. اللهم اكفنا شره وأذاه بما شئت.. اللهم خلصنا من تعذيبه لنا.. اللهم سلط عليه ما شئت من جنودك وارحمنا من ظلمه لنا...).

قاطعته.. متأثراً جداً.. بما سمعت..

- اعلم يا بني أن الله يسمع دعاءك ويستجيب لك.. وسيرفع عنكم.. الظلم الواقع عليكم.. سنة الله أن ينصر المظلوم.. وسنة الله أن يهلك الظالمين.. وسنة الله أن يستجيب لدعاء المظلوم.. مهما كان الظالم..

❋❋❋❋❋

ولا يزالون مختلفين!

في زيارة للمركز الإسلامي في باريس.. حضرت ندوة لعالم مغربي استُدعي لجولة دعوة في فرنسا.. كان الحضور كبيراً.. لم تسعهم القاعة.. بقي عدد كبير وقوفاً.. رغم الجهود الكبيرة التي بذلها المنظمون لهذه الفعالية.. بعدها ذهبت وصاحبي واثنان من المقيمين في باريس أحدهم فرنسي أسلم والآخر مغربي.. إلى مطعم عربي قريب من المركز..

لم نجد مشكلة في التواصل باللغة العربية، لأن الفرنسي تعلم ما يكفي ليفهم لغتنا.. بدأ هو الحديث..

– هل سيبقى الاختلاف بين المسلمين دائماً؟ لماذا لا تتحد أمة الإسلام وتكون أمة واحدة تواجه الشرق الملحد.. والغرب المتغطرس.. وتنشر دين الله؟!

استأذن صاحبي أن يكون هو المحاور الأول..

– دعني أبيّن لك بعض المقدمات ثم نناقش هذه الفكرة الجميلة منك يا (عبد السلام). (كان اسمه روجيه قبل الإسلام).

عندما خلق الله البشر.. خلقهم.. قادرين على التمييز بين الحق والباطل.. خلق لهم عقولاً.. وجعل فيهم فطرة.. وبعث لهم أنبياء وأنزل لهم كتب... ولكن منذ بدء الخليقة.. قرر أحدهم أن يقبل الحق.. والآخر أن يرفض الحق.. بإرادتهما.. وذلك أن الجنس البشري.. مخلوق مكلَّف.. يُعطى أوامر.. من الله عز وجل.. وله القدرة على الطاعة والمعصية وهو الذي يختار... ولذلك يحاسب.. ويثاب أو يعاقب...

يقول تعالى: ﴿وَلَوْ شَآءَ رَبُّكَ لَجَعَلَ ٱلنَّاسَ أُمَّةً وَٰحِدَةً ۖ وَلَا يَزَالُونَ مُخْتَلِفِينَ ﴿١١٨﴾ إِلَّا مَن رَّحِمَ رَبُّكَ ۚ وَلِذَٰلِكَ خَلَقَهُمْ ۗ وَتَمَّتْ كَلِمَةُ رَبِّكَ لَأَمْلَأَنَّ جَهَنَّمَ مِنَ ٱلْجِنَّةِ وَٱلنَّاسِ أَجْمَعِينَ ﴿١١٩﴾﴾ (هود).

في تفسير هذه الآية.. ولنأخذ تفسير عالم بلاد المغرب العربي.. الشيخ الطاهر بن عاشور (التحرير والتنوير) يقول:

«الله قادر أن يجعلهم أمة واحدة متفقة على الحق مستمرة عليه كما أمرهم أن يكونوا ولكن الحكمة التي أقيم عليها نظام هذا العالم اقتضت أن تكون عقول البشر متفاوتة في قبول الحق ورده» (بتصرف).

قاطعه (عبد السلام):

- أنا لا أتحدث عن الاختلاف بين الإسلام والكفر.. ولكن الاختلاف بين المسلمين.. هذا شيعي وهذا سني.. وهذا حنبلي وهذا شافعي.. وهذا سلفي.. وهذا صوفي... حتى بين الشعوب المسلمة أنفسهم لا الأنظمة السياسية!!

كان صاحبنا متحمساً.. رد عليه (أبو عبد الله)..

- ذات السبب قائم.. بل الاختلاف بين شخصين قائم لذات السبب.. هناك من يخضع للحق.. ومنهم من يرده.. ومنهم من يراوغ معه!!

لتفاوت العقول.. والأفهام.. والخضوع لأوامر الله.. وأحياناً يكون الاختلاف في أمور يعتبرها الناس صغيرة.. مثل (إعفاء اللحية).. وأحياناً تكون في أصول العقيدة... مثل (التوسل بغير الله)، و(النذر لغير الله).. فلماذا كل هذا الاختلاف؟ لذات السبب.. قبول الحق والخضوع له أو رده!!

استأذنت صاحبي أن أعقب...

- إن الاختلاف بين الناس.. سنة إلهية.. كانت وستبقى.. ولكن العبرة كيف يتعامل الناس مع هذا الاختلاف.. بين المسلمين أنفسهم مع أن الله قال في كتابه: ﴿وَٱعْتَصِمُواْ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُواْ﴾ (آل عمران: ١٠٣)، وعن النعمان بن بشير.. قال رسول الله ﷺ: «**الجماعة رحمة والفرقة عذاب**» (صحيح الجامع).. وحذَّرنا الله عز وجل من الاختلاف فقال:

﴿وَلَا تَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ تَفَرَّقُواْ وَٱخْتَلَفُواْ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ ۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٠٥﴾﴾ (آل عمران).

فهذه الأدلة تدعو المسلمين إلى التوحد وعدم الاختلاف، ولكن تبقى عقول البشر وأهواؤهم وموروث آبائهم.. وعاداتهم الاجتماعية.. تحكم قبولهم للحق.. أو ردّه.. أو المراوغة فيه.. وفي جميع الأحوال يجب على الإنسان أن يدعو الآخرين ويجمعهم على الكتاب والسنة ﴿**بالتي هي أحسن**﴾... وبالقول اللين.. و(بالحكمة والموعظة الحسنة).. هكذا هي سنة الحياة.

تدخل عبد السلام مرة أخرى...

قوله تعالى في الآية السابقة.. ﴿**ولذلك خلقهم**﴾.. هل أن الله خلقهم (ليختلفوا)؟...

سارع صاحبي في الرد...

- ينبغي أن نرجع إلى كتب التفسير قبل أن نتكلم في كتاب الله بغير

علم!!.. في ذات كتاب التفسير... واخترته لأنه الأكثر شيوعاً بين الجالية الإسلامية في فرنسا... يقول:

وأما تعقيبه بقوله ﴿**ولذلك خلقهم**﴾.. فهو تأكيد بمضمون ﴿**ولا يزالون مختلفين**﴾.. لأنه لما خلقهم على جِبلَّةٍ قاضية باختلاف الآراء والنزعات.. حصل الاختلاف بإراداتهم.. والمراد هنا في قوله ﴿**ولذلك خلقهم**﴾.. الاهتما بهذه العلة.. فلا تناقض بين الآيات.. التي تنهى عن الاختلاف وبين هذه الآية... وفي تفسير (السعدي).

﴿**ولذلك خلقهم**﴾.. اقتضت حكمته أنه خلقهم فمنهم السعداء والأشقياء والمتفقون والمختلفون والفريق الذي هدى الله والفريق الذي حقت عليه الضلالة ليتبين للعباد عدله وحكمته وليظهر ما كَمُن في الطباع البشرية من الخير والشر..

أظهر صاحبنا الفرنسي.. شيئاً من الارتياح..

- إذن هي ذات السنة الإلهية.. في تدافع الحق والباطل.. وصراع الظلمات والنوع.. على عدة مستويات.. صراع بين السنة والبدعة.. والتوحيد والشرك.. وبين الإسلام والكفر والإيمان والإلحاد.. والعدل والطغيان... سنة إلهية دائمة!!!

❋❋❋❋❋

من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته

أغبِطُ أبا خالد.. واسمه (وليد).. على نشاطه وحيويته وطيب نفسه.. يبتسم للجميع.. ويلبي دعوات الجميع.. ويسعى لخدمة الجميع.. كان يعمل في وزارة الدفاع.. تقاعد منذ تسع سنين.

– أشعر أنه فضل عظيم من الله علي.. أن أعطاني القدرة والرغبة أن أخدم الجميع – بما أستطيع – وذلك أن لي معارف كثر.. منذ كنت على رأس عملي..

– بارك الله فيك – وجزاك الله خيراً – هذه خصلة عظيمة في الإسلام ذلك أن النبي ﷺ قال: «**ومن كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته**» (متفق عليه).

وفي رواية مسلم: «**والله في عون العبد ما كان العبد في عون أخيه**».. كنت وأبو خالد في طريقنا لنبارك لجارنا أبي عبد الرحمن زواج ابنه..

تابعت حديثي..

– وفي السُّنة عن ابن عمر أن رسول الله ﷺ قال: «**إن لله تعالى أقواماً يختصهم بالنعم لمنافع العباد ويقرها فيهم ما بذلوها فإذا منعوها نزعها منهم فحوَّلها إلى غيرهم**» (صحيح الجامع).

قاطعني...

– حديث لم أسمع به من قبل..

– هكذا كانت ردة فعلي عندما سمعته لأول مرة.. ولذلك تابعت بحثي لأتأكد من صحته.. ثم قرأت ما قال العلماء في شرحه..

– وماذا وجدت؟!

في الشرح أن الله اختص أناساً بنعم معينة لينفع بهم العباد.. وذلك أنهم يبذلون هذه النعم لمن يحتاج إليها... فإذا لم يفعلوا حرمهم الله إياها!!

– وهل نستطيع أن نقول إن من سنن الله أنه يقضي حاجات العبد إذا هو سعى في قضاء حوائج الناس.. وأن الله في عون العبد إذا كان في عون أخيه.. وأن الله يستر العبد إذا ستر غيره.. هل تدخل في سنن الله مثل نصرة المظلوم.. وإجابة المضطر وغيرها؟!

– نعم... هذه قواعد ثابتة لا تتغير ولا تتبدل.. إذا عمل العبد بمقتضاها وفق مراد الله عز وجل نال نتيجة عمله.. دون شك.. وهنا تحضرني مقولة أم المؤمنين خديجة بنت خويلد زوج النبي ﷺ عندما أتاها مذعوراً من غار حراء.. لا يدري ما أصابه فقالت له: «**لا والله لا يخزيك الله أبداً.. إنك لتصل الرحم، وتحمل الكلَّ، وتكسب المعدوم، وتقري الضيف، وتعين على نوائب الدهر**».. فمن اجتمعت فيه هذه الأخلاق.. لا يمكن أن يصيبه سوء من الله عز وجل.. بلغنا المكان الذي نريد.. تابعنا حديثنا ريثما نجد مكاناً نركن فيه مركبتنا.

– بهذا المفهوم نستطيع أن نجمع عدداً كبيراً من سنن الله في خلقه.

– نعم.. كلما تدبر آيات الله عز وجل.. وأحاديث النبي ﷺ نجد سنن الله في عباده... قول الله تعالى:

﴿مَنْ عَمِلَ صَٰلِحًا مِّن ذَكَرٍ أَوْ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيَنَّهُۥ حَيَوٰةً طَيِّبَةً وَلَنَجْزِيَنَّهُمْ أَجْرَهُم بِأَحْسَنِ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٩٧﴾﴾ (النحل).

فهذا وعد من الله بأن المؤمن الصادق ينال «حياة طيبة».. في التفسير الحياة الطيبة: طُمأنينة القلب وسكون النفس وراحة البال والقناعة بما عنده... وفي تفسير قوله تعالى: ﴿وَهَٰذَا كِتَٰبٌ أَنزَلْنَٰهُ مُبَارَكٌ مُّصَدِّقُ ٱلَّذِى بَيْنَ يَدَيْهِ﴾ (الأنعام: ٩٢).

يقول الإمام الرازي: «ثم قد جرت سنة الله تعالى بأن الباحث عنه والمتمسك به يحصل له عز الدنيا وسعادة الآخرة.. وفي الحديث: «**كتاب الله عز وجل هو حبل الله من اتبعه كان على الهدى ومن تركه كان على الضلالة**» (مسلم).

فهذه السنن الإلهية.. قواعد وقوانين ثابتة من آمن بها وعمل بها مخلصاً رأى نتيجتها دون شك.. في الدنيا.. ترجلنا.. نمشي إلى الصالة..

- دعني أختم بهذه السنة وهي أن (من ترك السنة ابُتلِي بالاختلاف)..

يقول الشيخ الفوزان: وهذه سنة الله عز وجل أن من ترك الكتاب والسنة فإنه يبتلى بالاختلاف ويُبتلى بالضلال ويبتلى بالقلق وعدم الاستقرار.

❋❋❋❋❋

إجابة الدعاء

عادة إمامنا المكوث في المسجد بين المغرب والعشاء.. يبحث مسألة في مكتبة المسجد.. يقرأ ورده اليومي.. يقضي حاجة أحدهم.. يعطي درساً لمجموعة من المصلين..

قررت أن أجالسه بعد صلاة مغرب يوم الأربعاء.. وقد بدأ المجلس بسؤال من (أبي راشد)..

- كيف نوفق بين قول الله تعالى: ﴿**أَمَّن يجيبُ المضطرُ إذا دعاهُ**﴾، وبين حديث النبي ﷺ: «**ما من مسلم يدعو بدعوة ليس فيها إثم ولا قطيعة رحم إلا أعطاه الله إحدى ثلاث: إما أن يعجل له دعوته، وإما أن يدخرها له في الآخرة، وإما أن يصرف عنه من السوء مثلها.. قالوا: إذاً نكثر؟ قال: الله أكثر**» (صحيح الترغيب).

- لا تعارض يا أبا راشد.. من سنن الله عز وجل الثابتة أنه يجيب المضطر إذا دعاه.. ولذلك ذكر الله عز وجل هذه السنة ضمن آيات تبين انفراده سبحانه بأمور وذلك في قوله تعالى:

﴿ قُلِ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ وَسَلَٰمٌ عَلَىٰ عِبَادِهِ ٱلَّذِينَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَآللَّهُ خَيْرٌ أَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٥٩﴾ أَمَّنْ خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَأَنزَلَ لَكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً فَأَنۢبَتْنَا بِهِۦ حَدَآئِقَ ذَاتَ بَهْجَةٍ مَّا كَانَ لَكُمْ أَن تُنۢبِتُوا۟ شَجَرَهَآ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ هُمْ قَوْمٌ يَعْدِلُونَ ﴿٦٠﴾ أَمَّن جَعَلَ ٱلْأَرْضَ قَرَارًا وَجَعَلَ خِلَٰلَهَآ أَنْهَٰرًا وَجَعَلَ لَهَا رَوَٰسِيَ وَجَعَلَ بَيْنَ ٱلْبَحْرَيْنِ حَاجِزًا ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يَعْلَمُونَ ﴿٦١﴾ أَمَّن

يُجِيبُ ٱلْمُضْطَرَّ إِذَا دَعَاهُ وَيَكْشِفُ ٱلسُّوٓءَ وَيَجْعَلُكُمْ خُلَفَآءَ ٱلْأَرْضِ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴿٦٢﴾ أَمَّن يَهْدِيكُمْ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ وَمَن يُرْسِلُ ٱلرِّيَٰحَ بُشْرًۢا بَيْنَ يَدَىْ رَحْمَتِهِۦٓ ۗ أَءِلَٰهٌ مَّعَ ٱللَّهِ ۚ تَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿٦٣﴾﴾ (النمل).

في تفسير (ابن عاشور): «جعل الله سبحانه إجابة المضطر إذا دعاه من حقه الخالص الذي لا يشاركه فيه أحد كخلقه السماوات والأرض وإنزال المطر وإنبات الشجر وجعل الأرض قراراً وغيرها من الأمور التي انفرد بها بشهادة الخلق جميعاً مؤمنهم وكافرهم...» انتهى بتصرف.

فهذه سنة ماضية.. نافذة.. وذلك أن المضطر هو الذي انقطعت به الأسباب.. حينها يلجأ صادقاً إلى الله عز وجل.. فيستجيب الله له.. وذكر الله ذلك في آيات كثيرة من كتابه... مثل..

﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ ٱلضُّرُّ فِى ٱلْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّآ إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّىٰكُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ ٱلْإِنسَٰنُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾﴾ (الإسراء).

﴿هُوَ ٱلَّذِى يُسَيِّرُكُمْ فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا كُنتُمْ فِى ٱلْفُلْكِ وَجَرَيْنَ بِهِم بِرِيحٍ طَيِّبَةٍ وَفَرِحُوا۟ بِهَا جَآءَتْهَا رِيحٌ عَاصِفٌ وَجَآءَهُمُ ٱلْمَوْجُ مِن كُلِّ مَكَانٍ وَظَنُّوٓا۟ أَنَّهُمْ أُحِيطَ بِهِمْ ۙ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ لَئِنْ أَنجَيْتَنَا مِنْ هَٰذِهِۦ لَنَكُونَنَّ مِنَ ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿٢٢﴾ فَلَمَّآ أَنجَىٰهُمْ إِذَا هُمْ يَبْغُونَ فِى ٱلْأَرْضِ بِغَيْرِ ٱلْحَقِّ ۗ يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّمَا بَغْيُكُمْ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُم ۖ مَّتَٰعَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ ثُمَّ إِلَيْنَا مَرْجِعُكُمْ فَنُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٢٣﴾﴾ (يونس).

وفي سورة العنكبوت: ﴿ فَإِذَا رَكِبُوا۟ فِى ٱلْفُلْكِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ إِذَا هُمْ يُشْرِكُونَ ﴿٦٥﴾ ﴾ (العنكبوت).

وفي سورة لقمان ﴿ وَإِذَا غَشِيَهُم مَّوْجٌ كَٱلظُّلَلِ دَعَوُا۟ ٱللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ ٱلدِّينَ فَلَمَّا نَجَّىٰهُمْ إِلَى ٱلْبَرِّ فَمِنْهُم مُّقْتَصِدٌ ۚ وَمَا يَجْحَدُ بِـَٔايَـٰتِنَآ إِلَّا كُلُّ خَتَّارٍ كَفُورٍ ﴿٣٢﴾ ﴾ (لقمان).

وكان هذا سبب إسلام عكرمة بن أبي جهل.. فقد فرَّ من مكة بعد أن فتحها النبي ﷺ وركب البحر فأصابتهم ريح عاصف.. فنادى عكرمة اللات والعزى.. فقال أهل السفينة: أخلصوا فإن آلهتكم لا تغني عنكم شيئاً.. فقال عكرمة: والله لئن لم ينجِ من البحر إلا الإخلاص (توحيد الله) لا ينجني في البر غيره... ورجع وأسلم... وللقصة تفصيل..

استفسر أبو راشد..

– هل تعني بأن الله عز وجل يجيب دعوة المضطر.. ويكشف ما فيه من شدة... فوراً؟!

– نعم.. هذا إذا دعا بإخلاص ويقين.. أما السنة الإلهية العامة في إجابة الدعاء فهي ما ورد في قوله تعالى:

﴿ وَقَالَ رَبُّكُمُ ٱدْعُونِىٓ أَسْتَجِبْ لَكُمْ ۚ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِى سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ ﴿٦٠﴾ ﴾ (غافر)..

ولذلك ورد عن عمر رضي الله عنه أنه قال: «إني لا أحمل هم الإجابة وإنما أحمل هم الدعاء فإذا ألهمت الدعاء فإن الإجابة معه».

وقال ابن القيم في عدة الصابرين: «فمن أعطي من منشور الدعاء أعطي الإجابة فإنه لو لم يرد إجابته لما ألهمه الدعاء»..

- وكذلك قول الله تعالى بعد آيات الصيام:

﴿ وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ ۖ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ ۖ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُمْ يَرْشُدُونَ ﴿١٨٦﴾ ﴾ (البقرة).

- أحسنت يا (أبا محمد)... كان رابعنا في المجلس.. جاسم خلف كنيته (أبو محمد)...

يقول ابن تيمية في اقتضاء الصراط المستقيم: فمن دعاه موقناً أن يجيب دعوة الداعي إذا دعاه أجابه، وقد يكون مشركاً وفاسقاً، فإنه سبحانه هو القائل:

﴿ وَإِذَا مَسَّ الْإِنسَانَ الضُّرُّ دَعَانَا لِجَنبِهِ أَوْ قَاعِدًا أَوْ قَائِمًا فَلَمَّا كَشَفْنَا عَنْهُ ضُرَّهُ مَرَّ كَأَن لَّمْ يَدْعُنَا إِلَىٰ ضُرٍّ مَّسَّهُ ۚ كَذَٰلِكَ زُيِّنَ لِلْمُسْرِفِينَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴿١٢﴾ ﴾ (يونس).

وهو القائل سبحانه: ﴿وَإِذَا مَسَّكُمُ الضُّرُّ فِي الْبَحْرِ ضَلَّ مَن تَدْعُونَ إِلَّا إِيَّاهُ ۖ فَلَمَّا نَجَّاكُمْ إِلَى الْبَرِّ أَعْرَضْتُمْ ۚ وَكَانَ الْإِنسَانُ كَفُورًا ﴿٦٧﴾ ﴾ (الإسراء).

وهو القائل: ﴿ قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ ﴿١٤﴾ قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴿١٥﴾ ﴾ (الأنعام).

ولكن هؤلاء الذين يُستجاب لهم لإقرارهم بربوبيته وأنه يجيب دعاء المضطر إذا دعاه إذا لم يكونوا مخلصين له الدين في عبادته ولا مطيعين له ولرسوله كان ما يعطيهم بدعائهم متاعاً في الحياة الدنيا وما لهم في الآخرة من خلاق.

❋❋❋❋❋

الفهرس

م	الموضوع	الصفحة
	المقدمة	٥
١	السنن الإلهية (١)	١١
٢	السنن الإلهية (٢)	١٥
٣	السنن الإلهية في القرآن الكريم	١٩
٤	السنن الإلهية... قوانين ثابتة لا تتغير ولا تخطئ	٢٣
٥	لا مبدل لكلمات الله	٢٨
٦	يومٌ عند ربك كألف سنة مما تعدون	٣٤
٧	الأسباب والمسببات	٣٧
٨	لا عذاب.. دون تبليغ	٤١
٩	عند المعاينة... لا توبة!	٤٦
١٠	سنة التغيير	٥٢
١١	سنة المدافعة	٥٦
١٢	تمييز الخبيث من الطيب	٦١
١٣	سنة الابتلاء	٦٥
١٤	ما أصابكم.. فبما كسبت أيديكم	٧٠
١٥	سنة النصر	٧٥
١٦	وكان حقاً علينا ... نصر المؤمنين	٧٩

١٧	ولو قاتلكم الذين كفروا لَوَلَّوا الأدبار	٨٣
١٨	سنة الاستدراج	٨٩
١٩	سنة الله في الظالمين	٩٣
٢٠	سنة الله في المنافقين	٩٧
٢١	سنة الله في المكر والماكرين (١)	١٠١
٢٢	سنة الله في المكر والماكرين (٢)	١٠٧
٢٣	سنة الله في الكيد!	١١٢
٢٤	العاقبة للمتقين	١١٦
٢٥	سنة الله في الهداية والضلال (١)	١٢١
٢٦	سنة الله في الهداية والضلال (٢)	١٢٨
٢٧	نولّه ما تولَّى!	١٣٣
٢٨	سنة الله في الرزق (١)	١٣٨
٢٩	سنة الله في الرزق (٢)	١٤٣
٣٠	سنن الله في شكر النعم	١٤٦
٣١	بطر العيش	١٥٠
٣٢	سُنَّة الله في المترفين	١٥٥
٣٣	إن مع العسر يسراً	١٥٩
٣٤	إنكار المنكر ينجي!	١٦٤
٣٥	إذا عظم المطلوب.. كثرت الموانع!	١٧٠

٣٦ جزاء الإحسان.. إحسان!! ١٧٥
٣٧ العاصي.. يُجزى نقيض قصده! ١٨١
٣٨ من ترك شيئاً لله عوَّضه الله خيراً منه ١٨٥
٣٩ من آثر الحق.. أرضاه الله ١٩٠
٤٠ يَغْضَبُ اللهُ... إذا تفشَّت الفاحشة ١٩٥
٤١ سنة الله في (نصر المظلوم) ٢٠٠
٤٢ ولا يزالون مختلفين! ٢٠٤
٤٣ من كان في حاجة أخيه كان الله في حاجته ٢٠٨
٤٤ إجابة الدعاء ٢١١